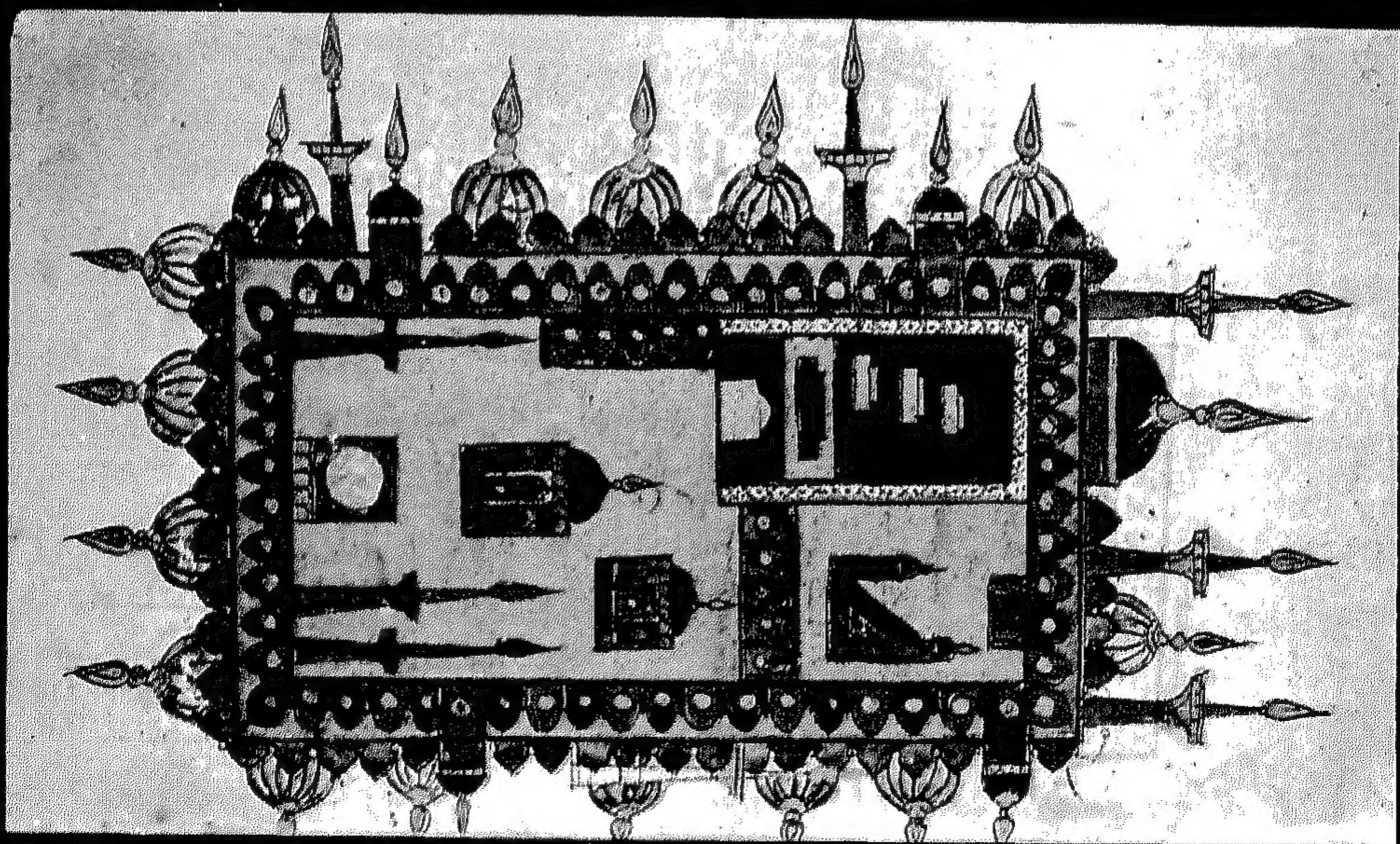




العلاقات الدولية والسياسة الخارجية في الإسلام



كتاب



الملتقى

سلسلة شهرية

تصدر عن شركة

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي

ش.م.م.

جمهورية مصر العربية

2 شارع طلعت حرب القاهرة.

ت : 5757227

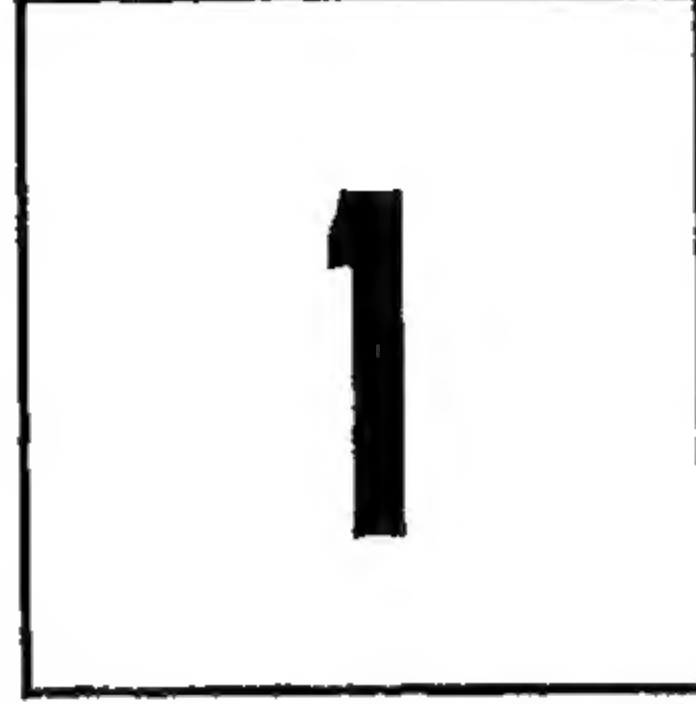
رئيس مجلس الإدارة والمشرف على التحرير

إسماعيل بهاء الدين

إهداء 2005

كاتب الإعلامي / فاروق خورشيد
القاهرة

كتاب



الملتقى

العلاقات الدولية والسياسة الخارجية في الإسلام

عبد التواب مصطفى

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة
الملتقى للإنتاج الفني والثقافي
ش.م.م
يناير 1994

تصميم الخلف للفنان
محمد ناصي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾
الضحى - 5
صدق الله العظيم

الإهداء:

إلى روح مَنْ أظنه استنفد فَضْلَ حُبِّي بعد الله والرسول.
 إلي روح من أدعو، وألحُّ على الدعاء مِنْ أجل أن يتغمده الله،
 بفيض عفوهِ وسابغِ رحمتِهِ.
 إلى معلّمى الأول ..
 أبى ..

المغفور له بإذن ربه - تعالى - في زُمرَةِ الصالحين.
 المتوفى عارفاً بالله، مقيماً لأحكام الدين.
 فضيلة الشيخ / مصطفى الشيخ على.

المسلسل	الموضوع	الصفحة
1	المقدمة	11
2	مبحث تمهيدى: تعريف العلاقات الدولية	
	والسياسة الخارجية	15
	مراجع المبحث التمهيدي	21
3	الفصل الأول: مفهوم العلاقات الدولية والسياسة الخارجية	
	فك الإسلام	23
	مقدمة:	23
	المبحث الأول : الركائز الأساسية لنظرية الإسلام السياسية	25
	المبحث الثانى : الشق الخارجى لنظرية الإسلام السياسية	31
	أولاً - تعريف العلاقات الدولية فك الإسلام	
	ونشأتها	31
	ثانياً - الخلاف الفقهي	
	حول العلاقات الدولية فك الإسلام	37
	ثالثاً - أسس ممارسة السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية .. وضوابطها	40
	مراجع الفصل الأول	49

المسلسل	الموضوع	الصفحة
4	الفصل الثاني : الأدوات السلمية في تنفيذ	
	السياسة الخارجية للدولة الإسلامية	53
	مقدمة :	53
	المبحث الأول : دور الكتب والرسائل والسفراء	
	في تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	55
	المبحث الثاني : دور المفاوضات والتحكيم	
	في تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	61
	أولاً - المفاوضات	61
	ثانياً - التحكيم	64
	المبحث الثالث : دور المهادنة وطلب الحماية والصلح	
	في تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	67
	أولاً - المهادنة	67
	ثانياً - طلب الحماية	68
	ثالثاً - الصلح	68
	المبحث الرابع : دور المعاهدات	
	في تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	69

المسلسل	الموضوع	الصفحة
	أولا - لمحة تاريخية	69
	ثانيا - تعريف المعاهدات	
	فك ضوء الإسلام	71
	ثالثا - التكييف القانوني والبناء الفني	
	للمعاهدات الإسلامية	72
	رابعا - أطراف المعاهدات	81
	خامسا - نقض العمود .. وفسخها	83
	المبحث الخامس : دور الإعلام والأنشطة الثقافية والاقتصادية	
	فك تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	85
	أولا - الأنشطة الإعلامية	85
	ثانيا - الأنشطة الثقافية	91
	ثالثا - الأنشطة الاقتصادية	98
	مراجع الفصل الثاني	103
5	الفصل الثالث : الأدوات غير السلمية	
	فك تنفيذ السياسة الخارجية	
	للدولة الإسلامية	111
	مقدمة:	111
	المبحث الأول : مفهوم الجهاد فك الإسلام	115
	المبحث الثاني : أخلاقيات الحرب والسلام فك الإسلام	127

المسلسل	الموضوع	الصفحة
	المبحث الثالث: أحكام الحرب والقتال	
	فك الشريعة الإسلامية	131
	مراجع الفصل الثالث	143
6	خاتمة الكتاب :	149
7	الملاحق :	153
	ملحق 1 : منهج الكتاب فك الاقتباسات القرآنية.	155
	ملحق 2 : دستور المدينة.	157
	ملحق 3 : كتاب رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران وأهلها.	
	وصيعة أمانه ﷺ لهم.	162
	ملحق 4 : نماذج من رسائله ﷺ إلى الملوك.	163
	ملحق 5 : أهم نصوص «العقيدة العهرية» .	165
	ملحق 6 : نص اتفاقية المصالحة والمهادنة بين علي بن أبي	
	طالب ومعاوية بن أبي سفيان.	166
	ملحق 7 : خطاب ملك إنجلترا جورج الثاني إلى هشام الثالث	
	ملك المسلمين فك الأنطلس	
	وإجابة هشام.	168

المقدمة

انطلاقاً من الإحساس بندرة المعالجات السابقة لهذا الموضوع، في المكتبة العربية والإسلامية عامة، تولد لدى الاهتمام به. وزاد اهتمامى بهذا الموضوع - العلاقات الدولية والسياسة الخارجية في النظرية الإسلامية - لما لمست أيضاً في المعالجات القليلة السابقة من جوانب قصور، جعلت من هذه المعالجات مجرد دراسات استكشافية أو استطلاعية، تقدم لنا المفاتيح - فقط - لمعالجة علمية تكون أكثر عمقاً فيما بعد، وهي التي نحن بصددتها في صفحات هذا الكتاب.

ويكفي للإشارة إلى هذه الندرة، أن نذكر ماقاله أ. د. حامد ربيع - في هذا الشأن - في مؤلفه «الإسلام والقوى الدولية» -: (وسوف تروّن كيف أن على الباحث أن يعاني من جميع جزئيات مشتقة في أكثر من موضوع لخلق إطار فكري للإدراك الإسلامى في هذا الصدد)، أو أن نذكر ماقاله - أيضاً - واحد من أبرز المشتغلين بالفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية - أ. د. أحمد شلبى - وذلك عندما أراد أن يكتب عن العلاقات الدولية في الفكر الإسلامى، فقال : (ولم أجد في الدراسات الحديثة أى مرجع عن هذا الموضوع).

هذا ، إلى جانب ما نلاحظه في المعالجات السابقة لهذا الموضوع من -

1 - اتسامها بأسلوب الخطابة والوعظ في كليات عامة - أخلاقية غالباً - وأمور مشتهرة، أو معلومة من الدين بالضرورة، كما يعبر عن ذلك علماء الدين.

2 - وجود خلط واضح - بين الداخلى والخارجى من الأحكام الشرعية - في التناول أو المعالجة .

3 - لم تتناول هذه المعالجات موضوع هذا البحث بمناهج العصر الحديث في البحث العلمى، خاصة ما يتعلق منها بتحليل السياسة الخارجية، وأبعادها المختلفة، وضوابطها ومرتكزاتها، وأدوات تنفيذها.

4 - عندما تتعرض هذه المعالجات للمقارنات، غالباً ماتكون هذه المقارنات منصبة على ظروف أو أحوال الحضارات القديمة (هندية، صينية، عربية، يونانية ورومانية)، وكيف قدم الإسلام الصورة الأفضل، وبرغم كون هذا شيئاً طيباً، فإننى أرى أن الأجدى والأجدر بالعرض والتناول، أن تكون المقارنات حالية

معاصرة، مرتبطة بقضايا الواقع المحلية والدولية، مع بيان الحلول والأطروحات الإسلامية المعاصرة، التي تبرهن على فعالية النظام أو الفكر الإسلامى وحيويته المتجددة، ومناسبته لعالم اليوم - أيضاً - كما كان شأنه فيما مضى.

كذلك كان تركيز الدراسات السياسية المعاصرة، على الموضوعات التي تمليها المصالح السياسية أو الاقتصادية لدولة ما، بقطع النظر عن الإطار الفلسفى الذى تنتمى إليه هذه الدولة أو تلك. ثم كانت أيضاً نظرتنا المتأملة إلى تراث الدولة الإسلامية من الناحية السياسية، فى عصورها المزدهرة، ثم إلى ضمور التوجُّهات الإسلامية أو غيابها فى السياسات الخارجية للدول الإسلامية المعاصرة. كان كل هذا مما دفعنا إلى التساؤل: لماذا تغيب حالياً التوجُّهات الإسلامية فى السياسات الخارجية لدول العالم الإسلامى؟ وهل هذا الغياب هو سبب ضمور دور هذه الدول على الساحة الدولية حالياً، وهل لا تمتلك هذه الدول فلسفة سياسية دولية خاصة تلتزم بها، وتسعى للدفاع عنها، كما يدافع الغرب عن فلسفته والشرق عن فلسفته.

وعلى أثر كل ما أشرت إليه فى السطور السابقة كانت قناعتى بأن هذا الموضوع - العلاقات الدولية والسياسة الخارجية فى النظرية الإسلامية - لم يستوف حقه بعد فى المعالجة العلمية العميقة من الناحية الشرعية وبأبعاده المختلفة، الأمر الذى أملى على أن أقدم هذه المحاولة التى أرجو أن أسهم بها إسهاماً فعالاً فى خدمة الفكر الإسلامى، وأقدم بها أو من خلالها خلفية أو صورة إسلامية متكاملة - قدر الاستطاعة - لواحد من أهم جوانب نظرية الإسلام السياسية، وأقصد به جانب العلاقات الدولية والسياسة الخارجية. وأرجو أن أكون بهذا العمل أيضاً قد تمكنت من تقديم أو توفير رؤية إسلامية واضحة فى هذا الموضوع يمكن فى ضوئها وعلى أساس ما أبرزته من ضوابط وأحكام - للعلاقات الدولية والسياسة الخارجية للدولة الإسلامية - أن ندرس - فى أبحاث وكتابات علمية أخرى - السياسات الخارجية للعديد من دول عالمنا الإسلامى المعاصر، وبيان مدى التزامها، أو خروجها عن هذا الإطار .

ويتناول الكتاب - برؤية بحثية معاصرة - جانب العلاقات الدولية والسياسة الخارجية للدولة الإسلامية، من خلال معالجة الموضوعات التالية :

- الركائز الأساسية لنظرية الإسلام السياسية عامة من خلال أبرز كتابات الفقهاء المسلمين فى هذا الجانب مثل (المودودى وابن تيمية والغزالى والماوردى) ثم التركيز على الشق الخارجى فى هذه النظرية والخاص بالعلاقات الدولية من حيث (تعريفها

ونشأتها وتطورها والخلاف الفقهي بشأنها) ثم الحديث عن دارى السلام والحرب ثم دارى الحياد والعهد. كل هذا من المنظور الإسلامى تحديداً.

- تناول السياسة الخارجية للدولة الإسلامية من حيث المرتكزات الأساسية التى تحكم عملية رسم هذه السياسة أو صناعتها، ثم الأطر الأخلاقية العامة التى تحكمها وضوابط ممارسة هذه السياسة وتنفيذها فى الواقع فى حالتى الحرب والسلم مع مختلف دول العالم.

- التعرف على أدوات تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، السلمية منها كالكتب والرسائل والسفراء والمفاوضات والتحكيم والمهادنة وطلب الحماية والصلح، ثم عقد المعاهدات، ثم الأنشطة الإعلامية والثقافية والاقتصادية، ثم بعد ذلك، الحرب عامة والقتال خاصة، كأدوات غير سلمية.

- وكان من أبرز ما جلته هذه المعالجة، تلك الخبرة التاريخية لرجال الدولة الإسلامية، فى صنع سياسة دولتهم وتنفيذها على الساحة الدولية بكفاءة ومهارة وأخلاق لم يسبقها ولم يلحق بها نظير فى النظم السياسية غير الإسلامية، حيث نجد هذه النظم غير الإسلامية قد احترف رجالها الكذب والنفاق والتدليس لتنفيذ سياسة بلادهم، بينما غاية السياسة الخارجية للدولة الإسلامية وأهدافها نبيلة وسامية، ويتم تنفيذها بوسائل نبيلة وكريمة أيضاً.

- وفى إطار الحديث عن المعاهدات الإسلامية، أو التى تكون الدولة الإسلامية طرفاً فيها، تم تناول البناء الفنى لهذه المعاهدات، وتكييفها القانونى وأحكام نقض العهود الدولية وفسخها.

- وعند التعرض للأنشطة الإعلامية والثقافية والاقتصادية كأدوات لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية تبين مدى انفتاح هذه الدولة على العالم وكثافة التعامل الخارجى فى كل هذه الجوانب، وسخاء العطاء الفكرى والعلمى والاقتصادى الذى قدمته الدولة الإسلامية للعالم، ودلالة كل هذا ومدى الإفادة منه فى مسيرة الدول الإسلامية المعاصرة على الساحة الدولية لتكون فاعلة ولها دور ملموس فى النظام العالمى المعاصر بسياساتها الخارجية حين تلتزم روح الإسلام وفكره، والخبرة التاريخية لرجال الدولة الإسلامية عبر القرون الماضية.

- وفى إطار الحديث عن الحرب والقتال كأدوات غير سلمية لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية تم توضيح المفهوم العام للجهاد فى الفكر الإسلامى، وإزالة اللبس المتعمد الذى ألحقه به بعض خبثاء المستشرقين إضعافاً لهمة المسلمين فى العصر الحديث، ثم عرض الكتاب الأخلاقيات والضوابط والأحكام الخاصة بخوض الحرب والقتال فى الشريعة الإسلامية.

وختاماً... أقدم وافر شكرى وتقديرى إلى كل الذين أسهموا - بقدر ما - فى تناول هذا الموضوع، وكانت كتابتهم فى مقدمة مراجعنا، وفى طليعة هؤلاء :-

1 - فضيلة الإمام الأكبر : محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق.

2 - فضيلة الأستاذ الشيخ : محمد أبو زهرة.

3 - فضيلة الأستاذ الدكتور : أحمد شلبى.

4 - فضيلة الأستاذ الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطى.

5 - الأستاذ الدكتور : حامد ربيع.

والله ولى التوفيق

عبد التواب مصطفى

زهراء عين شمس

القاهرة

فى 1993/9/23م

مبحث تمهيدى

تعريف العلاقات الدولية والسياسة الخارجية

مقدمة :

لعل أقدم الاتجاهات وأكثرها تقليدية فى تعريف علم السياسة هو ذلك الذى يركز على دراسة الدولة والوحدات المتفرعة عنها، وهكذا فإن علم السياسة فى عرف هذا الاتجاه هو «علم الدولة» أو هو ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذى يتناول دراسة نظرية الدولة وتنظيمها وحكومتها وممارستها⁽¹⁾.

وقد أشار أرسطو إلى أن الغرض من دراسة السياسة على وجه عام هو من أجل العمل أكثر منه من أجل المعرفة، ولذا فالإنسان دائماً مضطرب عاجلاً أو آجلاً - إلى أن يتساءل ما إذا كان حدوث تغيير فى معارفه سيؤثر على عالم السياسة الذى يعيش فيه ويعمل فى نطاقه⁽²⁾، وبهذا يتأكد أيضاً القول بأننا نتعلم لكى نعيش فى ضوء ما تعلمنا، ولسنا نتعلم لكى نقول : إننا نعرف.

وتجنباً للتكرار مع الدراسات العديدة السابقة، فسوف نشير بإيجاز فى الصفحات القليلة التالية إلى التعريف بالعلاقات الدولية والسياسة الخارجية بوجه عام، وذلك لشدة ارتباطهما - من بين فروع علم السياسة - بمضمون هذا الكتاب، وذلك أيضاً قبل التعريف بهما فى إطار النظرية الإسلامية.

تعريف علم العلاقات الدولية⁽³⁾:

اختلفت التعريفات التى أطلقت على الدراسات الدولية اختلافاً كبيراً، وهذا الاختلاف يرجع أساساً إلى الحداثة النسبية لهذه الدراسات، والاختلاف المدرسى بين الباحثين فيها، وأيضاً بسبب شمولها وعموميتها. وقد امتد هذا الاختلاف بحيث ظهر على التسمية التى تطلق على هذا النوع من المعرفة الإنسانية حيث أطلق عليها بعض من

المتخصصين اسم الشؤون الدولية International Affairs

والبعض الآخر اسم الشؤون العالمية World Affairs

وفريق ثالث اسم الشؤون الخارجية Foreign Affairs

وآخرون ينعنونها بالسياسة الدولية International Politics

والملاحظ على هذه التعريفات أنها تعتمد فى التعريف على صفة من الصفات الخاصة بالمُعَرَّف مثل : الدولية أو الخارجية، دون أن تهتم، أو على الأقل تعطى القدر نفسه من الاهتمام، لطبيعتها من حيث كونها علاقات Relations، ومن نافلة القول إن الاعتماد على الجوهر فى التعريف أدق من الاعتماد على الصفة، ناهيك من أنها علاقات بين أطراف فى هذه العلاقات، وهو مما يساعد على تصور وفهم أكثر صدقاً لكل ما يتصل بالعلاقات من ارتباط وتوافق أو اختلاف وتشابك.

ونظراً إلى أن هذه العلاقات ذات صفة دولية فهذا يعنى اهتمامها بدراسة كل ما يتصل بالجماعة الدولية (Communaut Internationale) وسواء كانت وحدات هذه الجماعة الدولية دولاً أم مجرد وحدات لم تصل إلى درجة الدول بالمعنى المحدد للدول فى القانون الدولى، ومن هنا كان مجال دراسة علم العلاقات الدولية أوسع بكثير من مجال القانون الدولى، كما أنه لا يشترط فى هذه العلاقات الدولية شروط خاصة؛ حيث يمكن أن تكون سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية ... الخ .

وإن كان الأصل الأساسى والعام أن العلاقات الدولية تخضع لأحكام القانون الدولى وقواعده فى حل ما ينشأ من خلافات وفى ضبط هذه العلاقات.

وقد تضمنت تقارير المؤتمرات العلمية التى نظمتها هيئة اليونسكو لبحث موضوع العلوم السياسية أن مادة العلاقات الدولية تشمل ثلاثة فروع ولكنها متصلة، وهى :⁽⁴⁾

1 - السياسة الدولية وتتناول دراسة السياسات الخارجية للدول، وتفاعل تلك السياسات مع بعضها البعض.

2 - التنظيم الدولى ويشمل دراسة أهم المنظمات الدولية من عالمية كالأمم المتحدة أو إقليمية كالجامعة العربية أو فنية مثل هيئة العمل الدولية.

3 - القانون الدولى ويتناول دراسة القواعد القانونية التى تنظم علاقات الدول بعضها البعض، وعلاقتها بالتنظيم الدولى.

تعريف السياسة الخارجية :

يمكن تعريف السياسة الخارجية لدولة ما بأنها تنظيم نشاط الدولة فى علاقاتها مع غيرها من الدول. وقد قدم الكاتب السياسى والتر ليبمان ما يكاد يكون معادلة تتركب منها السياسة الخارجية إذ قال : «إن السياسة الخارجية هى العمل على إيجاد التوازن بين الالتزام الخارجى لدولة ما والقوة التى تلتزم تنفيذ هذا الالتزام». ثم يعرف

الالتزام الخارجى بأنه كل تعهد ترتبط بموجبه الدولة خارج حدودها، وقد يستلزم تنفيذه استعمال القوة، أما تلك القوة فتتضمن الجيش والمواد الأولية والروح المعنوية للشعب. ويرى أن محور السياسة الخارجية هو أن تكون القوة اللازمة لتنفيذ الارتباط الخارجى أكبر مما يتطلبه هذا الارتباط، وعلى هذا فالعدو المحتمل إما أن يخشى تلك القوة فيُحجم عن المهاجمة ولا يخاطر بمعاداتها، وإما أن يركب رأسه فلا يجنى غير الهزيمة والخسران⁽⁵⁾ وقال آخرون بإيجاز إن السياسة الخارجية هي (برنامج العمل الذى يختاره الممثلون الرسميون للوحدة الدولية من بين مجموعة البدائل البرامجية المتاحة، من أجل تحقيق أهداف محددة فى المحيط الدولى)⁽⁶⁾.

وتتكون السياسة الخارجية من الوسائل التى تختارها الدول لتحقيق أهدافها فى حلبة السياسة الدولية. وبمعنى أوسع فإن جميع الدول معنية بمخاطر السياسة الدولية لحفظ الذات أو الأمن والاكتفاء الاقتصادى والنفوذ والهيبة القوميين. ومحور السياسة الخارجية هو تقرير أفضل السبل التى يمكن اتخاذها لدفع هذه الأهداف إلى الأمام. الأهداف التى تنصب عليها السياسة الخارجية. فعلى المسئولين عن صنع القرار أن يختاروا بين جملة خيارات فى أى وضع يُطرح أمامهم. وعادة ما يكون للدول أن تختار بين عدد من الاستجابات أو المبادرات التى يراها رجالها مناسبة فى صياغة السياسة الخارجية. إذ تصاغ هذه الخيارات فى صلب السياسة الدولية والمحلية. وعلى ضوء الموارد المتاحة لتطبيق السياسة المختارة⁽⁷⁾.

والسياسة الخارجية ليست تعبيراً محدداً عن مصالح الدولة أو مفاهيم الحقيقة الدولية التى تتضمنها لفظة «سياسة»، بل هى مزيج من مصالح وتصورات عدة قد تكون مترابطة أو قد لا تكون. لقد درج المنشغلون فى تكوين السياسة أن يتحدثوا عن أهداف وخطط طويلة المدى، وفى الحقيقة فإن جزءاً كبيراً من السياسة يعكس واقع ومجريات تخرج عن دائرة سيطرة صنع القرار. وتتألف السياسة الخارجية من عدد غير محدود من الافتراضات التى تعكس الشكوك الواقعة ضمن البيئة الدولية. ولعل أخطر مأخذ على عملية تكوين السياسة هو رفض تقبل حقيقة الظروف المتغيرة أو عدم القدرة على التعامل مع الأوضاع الجديدة عند التنبه لها⁽⁸⁾.

وتتم صياغة السياسة الخارجية فى سياق المصالح الوطنية الطويلة المدى للدولة والربط بين أحداث معينة قصيرة المدى والتجارب الماضية. وتناط بالزعيم الوطنى عادة المسئولية النهائية فيما يخص السياسة الخارجية. ولكن القرارات المتخذة فى هذا المستوى تعكس التقييم القادم من مستويات بيروقراطية أدنى تتقدمها الحلقة الداخلية

للمستشارين. وهناك نخبة السياسة الخارجية فى كل الدول والتي تنزع إلى تزويد الأفراد الذين يقومون بأدوار رئيسية فى صياغة السياسة بالمعلومات. وفضلاً عن حلقة المستشارين الداخلية التى يختارها الرئيس فإن الجيش والاستخبارات والمجموعات الدبلوماسية لها مدخلات هامة، وتتباين درجة الاشتراك التشريعى بين الدول. وللعنصر الإنسانى أهميته لأنه يؤثر فى الطريقة التى يعى بها موقفاً معيناً⁽⁹⁾.

وقد أجمل روبرت د. كانتور المصادر الداخلية للسياسة الخارجية فى : التاريخ والتقاليد والثقافة والأيدىولوجية والاستعمار والقومية الاقتصادية (حماية الصناعات الوطنية) والاستثمار الخارجى والمشرعين (البرلمان أو المجالس التشريعية) وجماعات المصالح (جماعات الضغط أو اللوبيات) ونخب السياسة الخارجية (الخيارات المتاحة) وببيروقراطية السياسة الخارجية (أصالة واحتراف العاملين بها) ثم رأى العام⁽¹⁰⁾.

وتسعى الدول لتنفيذ السياسة الخارجية من خلال استخدام كل الوسائل المناسبة بدءاً من الدبلوماسية⁽¹¹⁾ إلى العمل العسكرى، ومن التبادل الثقافى إلى الدمار، ومن التعاون الاقتصادى إلى الدعاية. ويعتمد المدى الذى يجب أن تلتزمه أو توظف فى حدوده هذه العناصر من القوة القومية لتأييد أهداف السياسة الخارجية على تقدير حساب الفائدة فى حالة ما. وربما يكون أهم المكونات فى مزيج الأدوات المتوفرة لتعزيز أهداف السياسة الخارجية هو التصميم على النجاح. وهذا يقرر المدى الذى ستذهب إليه الدول لتنفيذ السياسة. وتتم عملية تنفيذ السياسة الخارجية من خلال النشاط الدبلوماسى ضمن منظمات إقليمية ودولية وكذلك المفاوضات بين الدول. ويضاف إلى ذلك جهود كل الأفراد العاملين ضمن توجيهات الحكومة، وهم: الدبلوماسيون والضباط العسكريون، والمسؤولون الذين يتعاملون مع قضايا التجارة الدولية والمال، وأولئك الذين يعززون مصالح الدولة من خلال البرامج الثقافية وبرامج أخرى⁽¹²⁾. ويتطلب تنفيذ السياسة الخارجية تطوير استراتيجية متابعة الأهداف، فالاستراتيجية التى يتم تبنيها فى النهاية هى انعكاس لأهداف السياسة الخارجية كما هى انعكاس للقدرات والقيم المحلية⁽¹³⁾.

وإذا كان وضع نهج لاستراتيجية السياسة الخارجية يتركز على المفاهيم الطويلة المدى للمصالح القومية والتنبؤات القصيرة المدى لحجم القوة الضرورية لتنفيذ ذلك، فإن رغبة جميع الدول هى تحقيق أهدافها بالطرق السلمية، وذلك ليس يعود إلى طبيعة البشر دائماً، وإنما يعود إلى إدراك الدول أن الحرب مكلفة وتستهلك مصادرها البشرية والاقتصادية⁽¹⁴⁾.

كذلك يُذكرُ أيضاً أنه قد تتعارض القرارات قصيرة المدى للسياسة الخارجية لدولة ما - وأحياناً طويلة المدى أيضاً - مع القيم الراسخة لهذه الدولة: لقد درجت الولايات المتحدة - مثلاً - على دعم أنظمة مناهضة للديمقراطية مثل إسبانيا (فرانكو)، وكذلك - مثلاً - آخر - انهالت الأسلحة والمستشارون الروس على سوريا عقب الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، بالرغم من أن سوريا تناهض الشيوعية؛ ولذا فمن الإنصاف القول إنه : فى واقع السياسة الدولية صديق عدوى هو عدوى، وعدو عدوى هو صديق⁽¹⁵⁾.

* * * *

* * *

* *

*

مراجع البحث التمهيدية

- 1 - د. بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى، المدخل فى علم السياسة، ط 7 ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1984، ص 7 .
- 2 - جراهام ولاس، السياسة والطبيعة البشرية، ترجمة ونشر لجنة «اخترنا لك»، القاهرة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، د.ت، ص 137.
- 3 - د. إبراهيم شلبى، دراسات فى المشاكل الدولية العربية، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، د.ت، ص 3 .
- 4 - د. بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ص 7 - 8 .
- 5 - المرجع السابق، ص 351 .
- 6 - راغب محمد السعيد، عرض لكتاب (تحليل السياسة الخارجية) لمحمد السيد سليم، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، الأهرام، عدد 82 ، أكتوبر 1985 ، ص 240 .
- 7 - روبرت د. كانتور، السياسة الدولية المعاصرة، ترجمة د. أحمد ظاهر، مركز الكتب الأردنى، 1989 ، ص 409 .
- 8 - المرجع السابق، الصفح نفسها.
- 9 - المرجع السابق، ص 442 .
- 10 - لمزيد من التفاصيل - المرجع السابق، ص ص 363 - 405 .
- 11 - نظراً إلى أن «الدبلوماسية» هى أهم وسائل تنفيذ السياسة الخارجية، نجد أن البعض يستعملها جوازاً بمعنى السياسة الخارجية، كأن يقال - مثلاً - :
- الدبلوماسية البريطانية فى الشرق الأوسط مضطربة.
- أو الدبلوماسية الفرنسية فى شمال أفريقيا عنيفة.
- أو يقال فى وصف السياسة الخارجية :

أو الدبلوماسية الاستعمارية Colonial diplomacy

أو دبلوماسية الحياد بمعنى سياسة الحياد Neutral diplomacy

أو دبلوماسية عدم الانحياز Non - aligned diplomacy

بمعنى سياسة عدم الانحياز.

ولمزيد من التفاصيل، راجع : د. عز الدين فودة، ما الدبلوماسية، القاهرة؛
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971 ، ص ص 13 - 14 .

12 - روبرت د. كانتور، مرجع سابق، ص 447.

13 - المرجع السابق، ص 472.

14 - المرجع السابق، ص 304.

15 - المرجع السابق، ص 91.

الفصل الأول

مفهوم العلاقات الدولية والسياسة الخارجية فكر الإسلام

مقدمة :

فى إطار طبيعة الإسلام - دين وشريعة ونظام حياة كامل شامل لأمر العقيدة والأخلاق والمعاملات - ، كان اهتمام الإسلام وعنايته بجانب السياسة والحكم فى دولته كاهتمامه وعنايته بسائر أمور حياة المسلمين.

وكما قضت طبيعة الإسلام بأن تكون السياسة ونظام الحكم جزءاً من الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية، كذلك قضى به تاريخ الإسلام وواقعه - الذى نشأ عن اجتهاد السلف - وهذا الواقع مصدر من مصادر التشريع فى الإسلام⁽¹⁾.

ورئاسة الدولة الإسلامية هى ما عرفت من قبل بالخلافة أو الإمامة العظمى. ولما كانت الدولة الإسلامية قائمة على الإسلام الذى يسيطر على الأفراد والجماعات ويوجههم فى حياتهم الدنيا، كان للخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية وظيفتان أساسيتان حددهما الفقهاء وهما :

الأولى - إقامة الدين الإسلامى وتنفيذ أحكامه.

الثانية - القيام بسياسة الدولة التى رسمها الإسلام.

على أنه يمكن الاكتفاء بالقول بأن وظيفة الخليفة هى إقامة الإسلام ديناً ودولة⁽²⁾.

ويعتبر ابن خلدون أن إقامة الخلافة هى مصلحة عامة تفوض لنظر الأمة الإسلامية. ويؤمن أهل السنة - كالأشعرى وابن خلدون (1330 - 1406م) - بأن تنصيب الخليفة واجب على الأمة، وأن مبايعة شخص ما تعنى إبرام عقد معه على الطاعة والولاء له فى حدود صلاحياته الجديدة كإمام أو قائد للأمة. ويرى الشيعة أن الأساس الذى تقوم عليه سلطة الإمام ليس هو العقد، وإنما حقه فى هذا المنصب، وهو حق لا ينقسم عنه بصفته من سُلالة الخليفة الرابع على بن أبى طالب - رضى الله عنه -، الذى عينه الرسول ﷺ بنفسه - طبقاً لمذهب الشيعة - كما أن الشيعة لا يرون الخلافة مجرد مصلحة عامة تُفوض لنظر الأمة ، وإنما هى ركن من أركان الإسلام⁽³⁾.

وهكذا يتبين مدى اهتمام الإسلام بسياسة دولته، ومدى اهتمام المفكرين المسلمين ورعييل الإسلام بالخلافة ورئاسة الدولة الإسلامية، فلم يُفَرِّطْ أحد في شأن هذا المنصب، بل إن البعض - الشيعة - بالغ في الاهتمام به، فأضفى عليه صفة ركن من أركان الإسلام.

وإذا كان الصحابة قد اختلفوا بشأن الخلافة، فينبغي العلم بأن الخلاف كان على الشخص الذي يملأ الوظيفة، لا على الوظيفة أو الخلافة أو فرضيتها أو وجوب إقامتها⁽⁴⁾.

وكذلك كان شأن الإسلام مع كل جوانب العمل السياسي في دولته - داخلياً وخارجياً، فأبانها وحدد أبعادها ورسم ضوابطها : كالخلافة، الشورى، المعارضة، العلاقات الدولية الخ. ولذا فقد خصصنا هذا الفصل للتعرف على الركائز الأساسية لنظرية الإسلام السياسية - في المبحث الأول - على الوجه العام، ثم التعرف على ملامح الشق الخارجى لهذه النظرية - في المبحث الثانى - متناولاً فرعاً هذا الشق الخارجى، وهما العلاقات الدولية : تعريفها ونشأتها فى الإسلام، ثم السياسة الخارجية للدولة الإسلامية : من حيث قواعدها المتعددة وضوابط ممارستها أو تنفيذها .

المبحث الأول

الركائز الأساسية لنظرية الإسلام السياسية

إن القاعدة التي يقوم عليها البناء السياسى فى الإسلام هى الأمة أو الجماعة. وهى جماعة الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بروابط الدين. وجميع أفراد هذه الأمة متساوون، والله وحده هو رب هذه الجماعة وحاكمها، ويحدد نظامها الداخلى ويؤمنه رضا أفرادها جميعاً بأحكام الله وخضوعهم له وطاعتهم لرأس الجماعة⁽⁵⁾.

وقد كتب الكثيرون من الفقهاء المسلمين عن الأساس العقائدى للنظرية السياسية ونظام الحكم فى الإسلام كأبى الأعلى المودودى من المحدثين⁽⁶⁾ وابن تيمية فى القرنين السابع والثامن الهجريين (ت 728 هـ) والغزالى (ت 505 هـ) والماوردى (ت 450 هـ) فى القرن الخامس الهجرى، وعن هؤلاء وغيرهم كثرت نقول المشتغلين بالبحث والفكر السياسى فى الإسلام⁽⁷⁾.

ولعلنا هنا - على إجلالنا للإمام الشافعى - نكبر ما عقب به الفقيه المحقق ابن عقيل على قول الإمام الشافعى : «لا سياسة إلا ما وافق الشرع». فقد أنشأ ابن عقيل مخاطبه قائلًا : فإن أردت بقولك : «لا سياسة إلا ما وافق الشرع» أى لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت : لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة. ويستشهد ابن عقيل على ذلك ببعض الوقائع التى اعتمد فيها الخلفاء الراشدون على مصلحة الأمة غير واقفين عند منطوق الشرع وحده، مخافة تجميد المجتمع والإبطاء بسيره الإيجابى إلى بناء الحضارة والعمران⁽⁸⁾.

والخلاصة أن الرسول ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى إلا وقد خطا بالسياسة الرشيدة خطوات واسعة أتاحت للراشدين بعده أن يكملوا بتجاربهم ما بدأ، وأن يضمنوا للناس العدل والحرية، ويحموهم من العنف والجور، ويرسخوا فى نفوسهم فقه القواعد العامة التى نادى بها رسول الإسلام ﷺ والتى يمكن تلخيصها فى الأصول الأربعة التالية - كما جاء فى الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية - :⁽⁹⁾

1 - أن الولاء للأمة يحل محل الولاء للقبيلة.

2 - أن الأخوة الدينية هى أساس النظام الاجتماعى.

- 3 - أن الحاكم المسلم - بأى اسم يسمى - يجمع فى آن واحد سلطتى الدنيا والدين.
- 4 - أن الشورى بين الحاكم والمحكومين هى الأسلوب المفضل لضمان التوازن الاجتماعى .
- وبين - أيضاً - فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت أن المبادئ العامة الإسلامية فى مجال السياسة والحكم تتركز فيما يلى :⁽¹⁰⁾
- أولاً - السيادة لله وحده على هذا العالم، وقد استخلف الله - تعالى - الشعوب فى أوطانها، فلكل شعب سيادته فى وطنه.
- ثانياً - الله وحده هو الحاكم الأعظم، ويباشر كل شعب حقه فى الحكم فى بلاده نيابة عن الله.
- ثالثاً - السلطان أو الرئيس وكيل للأمة يحكم باسمها، وليس له عليها سيادة بل الأمة سيده وهو خادمها.
- رابعاً - الشورى أساس الحكم، وكل حكم لا يقوم على الشورى التى رسم قواعد ممارستها الإسلام فهو باطل.
- خامساً - هدف الحكم هو سعادة المحكومين، وضمان الأمن لهم فى الداخل والخارج، والحاكم الذى يعجز عن تحقيق هذه السعادة يأثم أشد الإثم لو بقى فى منصبه يوماً واحداً بعد هذا العجز .
- وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية أن على الخليفة عشرة واجبات هى بإيجاز :⁽¹¹⁾
- حفظ الدين على أصوله المستقرة، تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين، تحقيق أمن المجتمع ضد التفرير بالمال أو النفس، إقامة الحدود، تحصين الثغور، جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة، جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع، تقدير العطايا وما يُستحق من بيت المال، استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء، ثم أن يباشر بنفسه مُشَافَرة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يُعَوِّل على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة؛ فقد يخون الأمين ويغش الناصح.

وإذا كان هذا بشأن الخليفة - تحديداً - فإن الإدراك الإسلامى التقليدى يجعل أيضاً - بصفة عامة - للدولة وظائف تتحدد بالعناصر التالية :⁽¹²⁾

أولاً - إن الدولة الإسلامية تملك رسالة تدور حول قيم معينة لا تتقيد بالمجتمع القومى وتفرض عليها التعامل الخارجى.

ثانياً - إن محور هذه الرسالة فى خاتمة المطاف هو حقوق المواطن وكرامته وتمكينه من تحقيق ذاتيته المسلمة.

ثالثاً - الرسالة الإسلامية أخلاقيات وقيم بحيث إن هذه المثاليات تعلو فى وظائف الدولة أى حاجات مادية.

رابعاً - أصل علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من المجتمعات المحيطة بها والمتعاملة معها هو مفهوم الجهاد.

خامساً - الجهاد برغم ذلك هو ضرورة واستثناء. ويسبق الجهاد دعوة مباشرة، أساسها الحديث مع السلطة الشرعية ليتمكن الاتصال بهذا المعنى كمقدمة ضرورية لأى تعامل قتالى.

ويؤخذ فى الاعتبار أن بالنقطتين : رابعاً وخامساً، غموضاً سيزول أثره بالتعرف على مفهوم الجهاد فى الإسلام فى الفصل الثالث.

سادساً - الاحترام المتبادل بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى، هو مبدأ أخلاقى، لا يلتزم به الدولة فقط مع السلطات الحاكمة فى تلك الدول، بل إن هذا المبدأ الأخلاقى يلتزم به الدولة فى معاملة جميع مخالفيها سواء فى الداخل أم الخارج.

وكذلك حاول بعض المهتمين بالفكر السياسى الإسلامى بلورة مبادئ النظام السياسى الإسلامى بمزيد توضيح وإضافة لما تم عرضه حتى الآن، وقد آثرت أن أعرض هذه المحاولة أيضاً لما بها من جديد.

فحتى يكون الإمام رأس الأمة إماماً للمسلمين قائماً على أمر دينهم ودنياهم عليه بتطبيق واحترام الآتى⁽¹³⁾ :

1 - علّو الكتاب والسنة على جميع القوانين؛ فهما يمثلان العرف الدستورى للأمة الإسلامية الذى قامت عليه دولة الإسلام التى أسسها النبى ﷺ وسار على مبادئها من جاء بعده.

- 2 - احترام نظام الشورى.
- 3 - دعوة الأمة إلى إقامة أركان الإسلام الخمسة.
- 4 - تنصيب جماعة من العلماء المنقطعين للدعوة لنشر الإسلام والدفاع عنه فى الخارج .
- 5 - تولية الأكفاء أمور المسلمين لبلوغ أسمى مراتب الإتيقان فى كل فن وعلم.
- 6 - إقامة العدل.
- 7 - السمع والطاعة لولى الأمر فى غير معصية.
- 8 - عدم رفع السيف على الإمام والصبر على مايكره منه.
- 9 - عدم التنازع.
- 10 - الضرب على أيدي الخارجين بإقامة الحدود.
- 11 - إحسان معاملة أهل الكتاب وعدم التعرض لكنائسهم وبيعهم.
- 12 - بثُ العيون والعسس لحماية أراضى الأمة من الفتن الداخلية والخارجية.
- 13 - تعبيد الطرق وإقامة الجسور وتأمين الثغور لنشر الأمن وتيسير المصالح.
- 14 - الدعوة إلى حفظ القرآن؛ باعتباره أساس التعليم الإسلامى، مع فتح المعاهد العلمية والجامعات.
- 15 - عدم المساس بمكانة المرأة التى أكسبها إياها الإسلام.
- 16 - تحقيق التكامل الاجتماعى بين المسلمين.
- 17 - الجهاد دفاعاً عن العقيدة.

وهكذا يتضح مدى اهتمام الإسلام بأمر المسلمين وتنظيمه لحياتهم بشقيها الدينى والدنيوى، الأمر الذى يجسد لنا ملامح النظرية السياسية الإسلامية بشكل عام.

وقبل مغادرة هذا الموضوع، هناك نقطة مهمة يجب أن تساق فى هذا الإطار؛ دفعاً لخلط كبير وقع فيه الكثيرون - من المهتمين بالفكر الإسلامى - بشأن قضية الخلافة ونظام الحكم فى الإسلام، حيث ينبغى التمييز بين قضيتين أساسيتين فى هذا

الصدر^(١٤) . الأولى : قضية «سند شرعية السلطة» ، وأساس الطاعة التي يستحقها الرعاية على الرعاية. والأخرى : قضية «النظام القانوني» الذي يخضع له المجتمع المسلم، بحكامه ومحكوميه، وهو نظام الشريعة الإسلامية.

والقضية الأولى مؤداها أن سند شرعية السلطة في المجتمع الإسلامي هو «رضا المحكومين» وأن الحكومة الإسلامية - لهذا - حكومة مدنية وليست حكومة دينية. أما القضية الأخرى، أي النظام القانوني الذي يخضع له المجتمع المسلم فهو نظام قانوني «إلهي المصدر» لأن مصادره العليا الأساسية، مصادر دينية ترجع إلى الوحي. ويضيف د. أحمد كمال أبوالمجد قائلاً : وإذا كانت الخلافة «نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به» فإن التأمل في هذه العبارات يكشف عن أن مسئولية الحاكم في حراسة الدين هي جزء من وظيفته وليست تحديداً لسند شرعية حكمه وسلطته. وقد حسم الإمام محمد عبده هذا الأمر بقوله : «ليس في الإسلام ما يسمى عند القوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه». ثم إن ما ذهب إليه المودودي في محاولته اختصار البحث بإدماج القضيتين معاً، بقوله : إن النظام السياسي الإسلامي ليس ثيوقراطياً (أي دينياً) خالصاً، وليس ديمقراطياً خالصاً، ولكنه (ثيوديمقراطي) .. يُعدُّ - ذلك المذهب - مزجاً لا ضرورة له، وضرره أكبر من نفعه^(١٥) .

* *

*

المبحث الثاني

الشق الخارجى لنظرية الإسلام السياسية

يمكن القول بأن الشق الخارجى لنظرية الإسلام السياسية هو مجموعة المبادئ التى رسمها الفكرى الإسلامى وبلورتها حضارة الإسلام بشأن الممارسات السياسية للدولة الإسلامية خارج حدودها أى فى دور الحرب والمعاهدة والحياة - حيث تنشأ وتتطور علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى أو تتحدد المواقف أو توضع الخطط أو يكون التفاوض أو تكون المعاهدات أو تُعلن الحرب بينها وبين الدول الأخرى، وكيفية ممارسة كل ذلك وضوابطه كما قرر وبين الإسلام.

وأرى أنه قبل أن تكون للدولة الإسلامية سياسة خارجية ذات ملامح محددة ومنهج واضح ذو أسس ومبادئ ، كانت قد بدأت العلاقات الفعلية بين هذه الدولة والدول المحيطة ، وبنمو هذه العلاقات شيئاً فشيئاً بدأت تتبلور ملامح سياسة خارجية محددة تتبعها الدولة الإسلامية فى علاقاتها بغيرها من الدول، ويرسمها رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده، ساعياً أو ساعين لتحقيق أهداف محددة للدولة الإسلامية خارج حدودها، ومن خلال أدوات معينة ورجال ذوى خبرات وكفايات خاصة ، إلى آخر ما يتطلبه معنى السياسة الخارجية.

ولذا فسنبدأ حديثنا عن الشق الخارجى لنظرية الإسلام السياسية بالحديث عن تعريف العلاقات الدولية فى الإسلام ثم نشأتها وتطورها، ثم بيان قواعد السياسة الخارجية للدولة الإسلامية وضوابط تنفيذها أو ممارستها.

أولاً - تعريف العلاقات الدولية فى الإسلام .. ونشأتها :

تعرف العلاقات الدولية فى الإسلام باسم «السَّيْر» - جمع سيرة : أى سيرة المسلمين فى غيرهم من الأمم ⁽¹⁶⁾ .

ومعروف أنه لما بعث الرسول ﷺ، اقتضت طبيعة رسالته أن يسلك سبيل الدبلوماسية لنشر دعوته فى الجزيرة العربية، ومنها إلى أرجاء العالم الذى كان قائماً فى ذلك الوقت. وقد كانت العلاقات الدبلوماسية التى أقامها ﷺ مقصورة - فى بادئ الأمر - على المحادثات الشخصية وإرسال الكتب وإيفاد البعثات إلى القبائل.

ومن أجل ذلك كانت سفارات النبي ﷺ والصحابة من بعده إلى مختلف القبائل، وكانت المؤتمرات التي عُقدت في الجزيرة العربية لشرح مبادئ الإسلام والإقناع بها .

ولما انتشرت الدعوة، تحققت للعرب - ولأول مرة - وحدتهم السياسية، وقامت أول دولة إسلامية في المدينة المنورة بقيادة الرسول ﷺ، وأصبح انتهاج الدبلوماسية أو العلاقات الدولية - عامة - ضرورة جوهرية لدعم أركان الدولة الناشئة وامتدت هذه العلاقات لتشمل نواحي مختلفة.

وببدء حركة الفتوحات الإسلامية، أظّل الإسلام ممالك ودولاً كثيرة (الشام 17 هـ - مصر 20 هـ - العراق 21 هـ - ثم فارس والسند وبخارى وسمرقند ثم بلاد المغرب وكل شمال أفريقيا - ثم الأندلس 93 هـ) ثم توغل المسلمون بعد ذلك في فرنسا حتى نهر اللوار، واستولوا على جنوب إيطاليا وجميع الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط، بل هددوا البندقية وروما نفسها.

وأصبحت بذلك رقعة كبيرة من الكرة الأرضية تخضع للإسلام، ولم تكن أمريكا بقارتها قد اكتشفت، وكذلك استراليا. واستظل العالم المعروف آنذاك - آسيا وأفريقيا وأوروبا - بظل الإسلام، ولاقى كل عناية وتسامح، ونظراً إلى أنه لم يكن للمسلمين من الجيوش الجرارة ولا المعدات الحربية آنذاك ما يكفي لتحقيق السيطرة والتأمين لهذه الرقعة الواسعة التي يحكمونها من الأرض، فقد كانوا حريصين على الإفادة من الأسلوب الدبلوماسي والعلاقات المباشرة لتصريف غالب الشئون الخارجية للدولة الإسلامية⁽¹⁷⁾.

والمُتَّبَع - تاريخياً - لموضوع العلاقات الدولية في الإسلام يلحظ أن هذا الموضوع لم يكن موضع دراسة حتى سنوات قليلة. وسوف ترون كيف أن على الباحث أن يعاني من تجميع جزئيات مشتقة في أكثر من موضع واحد لخلق إطار فكري للإدراك الإسلامي في هذا الصدد. والواقع أن أول ما يلفت النظر بخصوص هذا الموضوع ظاهرتان جديرتان بالتأمل هما⁽¹⁸⁾ :

الظاهرة الأولى - وهي السائدة في الكتابات الغربية التي تعرضت لتاريخ العلاقات الدولية في العصور الوسطى: حيث نجد موقفاً من اثنين، إما تجاهلاً كلياً للدور الذي قامت به الحضارة الإسلامية في بناء تقاليد التعامل الدولي. ولنذكر على سبيل المثال العالم الفرنسي الذي تتلمذ على يديه جيل كامل من المتخصصين، وهو «ريد سلوب Red Slob»، ففي مؤلفه الشهير بعنوان (تاريخ المبادئ الكبرى في تاريخ الشعوب منذ العصور الوسطى حتى الحرب العالمية الثانية) والذي يزيد على ستمائة صفحة، لم ترد كلمة الإسلام أو السياسة الإسلامية ولو مرة واحدة.

والاتجاه الثانى يأتى فيما يتعلق بمصادر التصور الذى ساد العصور الوسطى فيما يتعلق بالعلاقات الدولية وهو المفهوم اليهودى. بعبارة أخرى : سواء الكاثوليكية أو الإسلام لم يكن يملك أى منهما إدراكه المستقل واقتصر على أن يتلقف المفهوم الذى ساد تلك القرون والذى لم يكن له من مصدر سوى الأصول اليهودية والمفاهيم التلمودية. ونموذج لهذا الاتجاه نجده بوضوح لدى **العالم الأمريكية «بوزمان Bozeman»** ، والواقع أن كلا الاتجاهين لا يستطيع أن يصمد أمام التحليل العلمى.

فجميع علماء العلاقات الدولية المعاصرة وبصفة خاصة فى إيطاليا وألمانيا يُسلّمون بأن التراث الإسلامى لعب دوراً خطيراً فى بناء تقاليد التعامل الدولى فى العصور الوسطى، وبصفة خاصة منذ بداية الخمسينيات أينعت نتائج المدرسة التاريخية التى اكتملت ما بين الحربين فى أوروبا فى نطاق العلاقات الدولية. ومنذ ظهور مؤلف العالم الإيطالى **فيسمارا عن «بيزنطة والإسلام»** حول تاريخ المعاهدات بين الكاثوليكية الشرقية والقوى الإسلامية توالى الاجتهادات وانبعثت مدرسة كاملة بهذا الخصوص، ولكن يعيب هذه المدرسة أنها انطلقت من مبدأ الدراسة القومية للعلاقات الأوربية الإسلامية. وحتى اليوم - 1981 - فلا موضع لمحاولة حقيقية تنطلق من الإدراك الإسلامى لبناء نظرية متكاملة تعكس المفاهيم الإسلامية والتصور القيادى الإسلامى، ولا تزال فى حاجة إلى البناء.

الظاهرة الثانية - هى أننا لو عدنا إلى الكتابات الإسلامية الحديثة والقديمة لما وجدنا اهتماماً حقيقياً بالعالم الخارجى، فالوثائق المتداولة والمصادر الموسوعية تحدثنا بتفصيل وتسوق للجزئيات بصدد كل ما هو ذو صلة بالتعامل الداخلى، ولكن عندما تنتقل إلى العلاقات الخارجية فالمعلومات محدودة إن وجدت، وهى فى غالب الأحيان تكاد تكون لا وجود لها، والقرون الثلاثة الهجرية الأولى فى المصادر الأوربية لا تحمل سوى تجهيل مطلق عن تفاصيل العلاقات الإسلامية الدولية، وإن كان لهذه الملاحظة بعض الاستثناءات. وكيف يُفسّر ذلك الصمت والغموض تجاه التصور السياسى لحقيقة التعامل وأبعاد التعامل مع العالم الخارجى لامبراطورية إسلامية وصلت إلى ما وصلت إليه من امتداد آنذاك. وهذا التجاهل تجده - مثلاً - عند العالم البريطانى المشهور «برنار لويس» أحد أصحاب الاتجاه الصهيونى، وكذلك المؤلف «ألون وليامز» فى مؤلفه «مدرجات الحضارة الإسلامية»، وكذلك فى الطبعة الحديثة التى صدرت منذ عدة أعوام عن التراث الإسلامى، والتى أقام بناءها الأول المستشرق المعروف «شاختر» لاموضع لهذا الحديث، وهو عندما يتناول العلاقات الغربية الإسلامية الدولية يقتصر على تحليل

الإدراك الغربى للإسلام دون أن يتطرق بأى شكل كان إلى الإدراك الإسلامى للغرب أو العالم الخارجى⁽¹⁹⁾. ولماذا نذهب بعيداً أيضاً، أليس جديراً بالتساؤل أن المرشد الببليوجرافى للعالم الأشهر (سوثاجت) والذى تعود طبعته الانجليزية الحديثة إلى عدة أعوام فقط لم يجد كل ما يتصل بهذا الموضوع جديراً بأن يخصص له ولو فقرة واحدة.

وفي ضوء ما سبق عرضه بهذا الشأن فإنني أقدم في هذه الصفحات ما توفر لدي من معالجات إسلامية تناولت في سطورها القليلة الحديث عن العلاقات الدولية في الإسلام.

فالعلاقات الدولية فى الإسلام هى ككل العلاقات الاجتماعية والأحادية تقوم على الرحمة والمودة والفضيلة والعدالة والوفاء بالعهود، ومن الضرورى أن تتلاقى الشعوب وتتعارف وتتعاون ليستغل الإنسان - خليفة الله وابن الأرض - كل ينابيع الثروة فيها، ويفيض كل إقليم على غيره بما يفضل مما ينتج ويبادله الآخر مثله⁽²⁰⁾.

وكانت عناية الدولة الإسلامية بالشئون الخارجية عناية كبيرة، لا تقل - إن لم تزد - عن عناية سائر الدول بهذه الشئون. والدارس لتاريخ الإسلام يجد من الأدلة على هذه العناية ومظاهرها ما لا يحتاج إلى مزيد شرح أو تفصيل، والمتأمل في كل ماسيمر به يتضح له أن الدين الذي يُعنى بالأحلاف والمعاهدات وكتب الأمان وأمور اللاجئين واتفاقيات الهدنة وما شاكل ذلك لا بد وأن يكون متصلاً بشئون السياسة أو ثِق اتصال⁽²¹⁾.

وقد نظم الفكر الإسلامى العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية على أساس نظرة الإسلام إلى الناس وتقسيمه لهم تقسيماً منطقياً، فالعالم من وجهة النظر الإسلامية ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- المسلمين ب- المعاهدنين ج- الأعداء

ولاجدال فى أن هذا التقسيم - وإن بدا لأول وهلة قديماً - يبدو بعد شئ من التبصر نظاماً حديثاً، وبعد شئ من المقارنة مع ما تتبعه الدول الحديثة، يبدو أيضاً نظاماً صالحاً لكل زمان⁽²²⁾.

وإذا كان النظام الدولي الإسلامى يقسم العالم إلى دار سلام ودار حرب ودار معاهدة، فليس معنى ذلك ألا تقوم علاقات سلمية بين المسلمين والحريين، بل يتطلب الأمر فقط إثبات هيبة الإسلام وخاصة عند الحدود، لأن الملحوظ فى أحكام العلاقات الدولية

الإسلامية - كما سيأتى تفصيلها - أنها تتطلب دولة سيدة قوية، فالضعيف لا يستطيع أن يكون عادلاً ولا يتأتى أن يوصف بالسماحة؛ فهذه كلها صفات العزة والقوة، وفيما عدا هدف بث الهيبة الإسلامية، فإننا نجد أن الحربى إذا دخل دار الإسلام تمتع بكافة حقوق الإنسان كاملة فيها، كما أنه لا مانع من الاستعانة بهم - استعانة العزيز القادر - فى أمور التجارة والخدمات ونحوها. وسيأتى الحديث تفصيلاً عن المعاهدات.

وأما الشعوب غير المتاخمة لدار الإسلام فالغالب ألا توصف بأنها من دور الحرب لانعدام مناسبة الاحتكاك الموجب لبث الهيبة⁽²³⁾.

وقد ادعى بعض الكتاب المعاصرين الذين تصدروا للكتابة فى فقه العلاقات الدولية من غير أهل الفقه أن الإسلام لم يعرف الحياد؛ لأنه قسم العالم إلى دار حرب ودار سلام ولا وسط بينها. وهذا غير صحيح لأن الوسط موجود وهو دار العهد. والآن نقول : إن هناك وسطاً آخر هو دار الحياد⁽²⁴⁾ فإذا نشبت حرب بين المسلمين وغيرهم من الأقوام وكان من بين هذه الأقوام من لا يريد أن يقاتل مع المسلمين ولا مع خصومهم، وهؤلاء يريدون أن يكونوا محايدين فى هذه الحرب، فهؤلاء أوجب القرآن احترام حيادهم وألا يمسوا، يقول الله - تعالى - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤَكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۖ﴾⁽²⁵⁾.

وأما إذا كانت الحرب مستعرة بين دولتين، فهل يقف المسلمون على الحياد؟ هنا نذكر ثلاث صور للحياد إجابة عن هذا السؤال :

الصورة الأولى - أن يكون النزاع بين المؤمنين بعضهم مع بعض - بعد تفرق المسلمين دولاً -، وهنا لا يصح الحياد. ويحكم هذه الصورة قول الله - تعالى - : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۖ﴾⁽²⁶⁾. وقول رسول الله ﷺ : (لَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا (أَي لَتَحْمِلْنَهُ عَلَيْهِ حَمْلًا) أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ).

الصورة الثانية - أن تكون الحرب بين دولة إسلامية وأخرى غير إسلامية، وفي هذه الحال لا يكون الحياد معنى أو موضع، فإنه يكفي الاعتداء على مسلم لكي تتضافر القوى على دفع الاعتداء؛ فالاعتداء على أى مسلم فى الأرض اعتداء على عامة المسلمين، لأن النبى ﷺ قال : «المسلم أخو المسلم، لا يسلّمه ولا يخذله». وقال أيضاً : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وهناك غير ذلك من أقواله ﷺ الدالة على التعاون الإسلامى عامة من غير قيد ولا شرط.

وإذا كانت الدولة الإسلامية هى المعتدية، ففي هذه الحال يتقدم المسلمون لإصلاح الحال ومنع الاعتداء.

والصورة الثالثة - أن يكون القتال بين دولتين غير إسلاميتين، وهذه الصورة لها عدة شعب :

الشعبة الأولى - أن تكون إحدى الدولتين علاقتها بالمسلمين ليست علاقة سلم وبينها وبين المسلمين حرب، ولكن سكتت السيوف لهدنة أو مودعة موقوتة، أو ليستعد كل واحد من الفريقين، فإن كان ثمة اتفاق على مودعة فإنها واجبة الوفاء فى المدة، إلا إذا تبين أن هذه المودعة ما كانت إلا لتتفرغ تلك الدولة غير الإسلامية لحسم أمرها مع مخالفيها ثم تعود للانقضاض على المسلمين إذا خرجت مظفرة، وفي هذه الحال يصح أن يقال : إن المصلحة الإسلامية يجب رعايتها وينبذ العهد لخوف الخيانة.

الشعبة الثانية - أن يكون بين المسلمين وإحدى الدولتين المتحاربتين حلف يوجب النصرة، وفي هذه الحال لا يمكن أن يقف المسلمون على الحياد، وكذلك فعل النبى ﷺ مع قريش الذين نقضوا العهد وأغاروا على خزاعة الذين كانوا قد انضموا إلى عهد النبى ﷺ فتقدم النبى ﷺ لغزو قريش وفتح مكة.

الشعبة الثالثة - أن تكون كلتا الدولتين المتحاربتين لا يربطهما بالمسلمين عهد ولا ذمة توجب الوفاء، وفي هذه الحالة نرى أن الأحكام الإسلامية توجب تجنب الدخول فى هذه الحرب لثلاثة أسباب :

الأول - أن الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلم، والحياد فى هذه الحال هو السلم.

الثانى - أن الحروب فى هذه الحال تكون لمآرب دنيوية لا لغايات تتعلق بالأخلاق والفضيلة، وكلا طرفيها ظالم. ولقد قال الإمام مالك فى قريب من هذا : «دَعُهُمْ يَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْ ظَالِمٍ بِظَالِمٍ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّهِمَا».

الثالث - أن دخول المسلمين فى هذه الحرب تأييد لأحد الفريقين الظالمين على الآخر. وتأييد الظالم لا يجوز. ولقد قال ﷺ : «مَنْ سَعَىٰ مَعَ ظَالِمٍ دَخَلَ النَّارَ».

وهنا أيضاً يُفْتَرَضُ أَحَدُ فَرَضَيْنِ :

الفرض الأول - أن تكون إحدى الدولتين تدافع عن عدالة أو معتدى عليها، فعلى وليّ الأمر المسلم العادل المصلح أن يدرس الموضوع من كل نواحيه، ويجوز أن يعاون المظلوم بشرط النظر إلى المصلحة الإسلامية فى ذلك. لأنه قد يتقوى هذا المظلوم وينقلب ظالماً، مادامت حروب هؤلاء الظالمين لا تقوم على أساس من الأخلاق أو الفضيلة الدينية الرشيدة، وقد تكون النتيجة لهذا الدخول أن تعتدى الدولة الأخرى على الديار الإسلامية مدفوعة بالدفاع عن نفسها، والأحوط بلا ريب التزام الحياد.

الفرض الثانى - أن يكون أحد الفريقين ضعيفاً يريد الآخر أن يلتهمه، وفى قدرة الدولة الإسلامية أن تدفع عنه الاعتداء، وفى هذه الحال نرى أن المبادئ الإسلامية توجب التقدم لنصرة الضعيف؛ فقد دعا الإسلام إلى نصرة الملهوف ودفع العدوان ونصر الضعيف، ما بَلَّ بِحَرْ صَوْفَةً، وَأَنْ هَذَا يَكُونُ إِذَا طَلَبَ الضَّعِيفُ هَذِهِ النَّصْرَةَ .

ثانياً - الخلاف الفقهي حول العلاقات الدولية فى الإسلام :

قام خلاف بين علماء المسلمين فى تفسير العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم من الشعوب التى لم تعتنق الإسلام. فمنهم من قال : أن العلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم غير الإسلامية لا تقوم إلا على أساس الحرب والقتال، واستند أصحاب هذا الرأى إلى عدد من الحجج أولها أمر القرآن المسلمين بأن يقاتلوا غير المسلمين حتى يدخلوا فى دينهم أو يعطوا الجزية. يقول - تعالى - : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ⁽²⁷⁾ ويقول أيضاً : ﴿ ... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ⁽²⁸⁾. وجاء فى الحديث الشريف أن محاربة غير المسلمين تكون فى إطار دعوتهم إلى الإسلام، يقول ﷺ : (أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... الحديث) ⁽²⁹⁾، ثم إن القرآن الكريم نهى

عن مخالفة غير المسلمين لقوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... ﴾⁽³⁰⁾ . والعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم وفقاً لآراء هؤلاء العلماء يجب أن تكون خاضعة لمبدأ الجهاد المستمر وهو فرض على كل مسلم وينبئ على ذلك أن يكون ما بين المسلمين وغيرهم هو الحرب. ويخلص من هذا أن يكون العالم دارين : دار الإسلام وهي التي يسودها الإسلام سواء أكان سكانها جميعاً مسلمين أم بينهم زميون. ودار الحرب أو دار الشرك وهي البلاد التي لا تجرى عليها أحكام الإسلام.

وفريق آخر من علماء الإسلام قالوا: إن العلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الدول التي لم تدن بدين الإسلام قد تقوم على السلام وحجتهم في ذلك أن الإسلام لا يجيز قتل الإنسان لمجرد أنه لا يدين بالإسلام لقول الله - تعالى - : ﴿ ... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾⁽³¹⁾ ، وإن آيات القرآن المكية أو المدنية أوضحت سبب القتال، وهو لا يخرج عن رفع الظلم أو القضاء على الفتنة أو الدفاع عن النفس أو حماية الدعوة. يقول - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَرُوا فَلَا عَدْوَانٍ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾⁽³²⁾ . وكذلك يستندون إلى أن وسائل القهر والإكراه ليست من التدابير التي أمر بها الإسلام بل إن أساس الإيمان هو الاعتقاد الناتج عن الاقتناع. يقول - تعالى - : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، ... ﴾⁽³³⁾ .

وبناء على ذلك فالسياسة الخارجية للدولة الإسلامية وفقاً لآراء هؤلاء العلماء تكون قائمة على المبادئ التالية :

1 - دعوة غير المسلمين إلى الإسلام هي فرض كفاية وعلى أن تكون الدعوة وفق ما نص عليه القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، ... ﴾⁽³⁴⁾ ، ويتم ذلك بإعداد الدعاة، وإيفادهم إلى البلاد غير الإسلامية.

2 - أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلام، إلا إذا طرأ ما يوجب الحرب كالعدوان أو الفتنة أو الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية.

وتكون الحرب حينئذ قد أوجبها قانون الدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن الحرية الدينية⁽³⁵⁾ .

ومن الناحية العلمية فإن المفهوم الأول للعلاقات الدولية فى الإسلام كان هو السائد فى عصر النبى ﷺ وخلفائه الراشدين لسببين : أولهما الدفاع عن الدين الجديد. وثانيهما الدعوة إليه. ولم يظهر المفهوم الثانى إلا فى عصر الدولة العباسية. وبانقسام الدولة الإسلامية اهتمت بالعلاقات الودية مع غير المسلمين خارج دار الإسلام كالقسطنطينية وروما والفرنجة والهند والصين. بل تطورت العلاقات بين المسلمين وغيرهم حتى وصلت إلى حد التحالف وعقد المعاهدات كما فعل الرشيد مع الامبراطور شارلمان. ثم تدهورت العلاقات بين المسلمين والغرب المسيحي بسبب الحروب الصليبية فى الأرض المقدسة، غير أن السلام والتعاهد عادا إلى سالف عهدهما وكان ذلك فى ظل الحكم العثماني⁽³⁶⁾.

وفى الواقع فإن الاتجاه أو المفهوم الأول تمثله أكثرية الفقهاء (الجمهور) بينما يمثل الاتجاه الثانى القلة من العلماء⁽³⁷⁾؛ فالاتجاه الأول هو رأى جمهور الفقهاء وأئمة المذاهب من أهل السنة والشيعة فى عصر الاجتهاد الفقهي - أى العصر الذهبي - وهو أواخر القرن الأول والثانى والثالث من الهجرة ويرَوْن أن يكون أصل علاقة المسلمين بغيرهم هو الحرب حتى يكون إيمان بالإسلام أو أمان من المسلمين لغيرهم، وأن الإسلام يأمر بدعوة مخالفه إلى أن يدينوا به، وهذه الدعوة دعوتان : دعوة باللسان ودعوة بالسنان، وأن قتال الكفار - الذين لم يسلموا - وغيرهم حتى يعطوا الجزية واجب، وإن لم يبدووا بالعدوان؛ لأن الأدلة الموجبة للجهاد لم تقيد الوجوب ببدايتهم.

بل إن باحثين آخرين يَرَوْن أن جعل الحرب قاعدة للعلاقات بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول هو أمر لم يختلف عليه أحد من علماء المسلمين عدا المستشرقين. مأخوذاً فى الاعتبار أن النصوص القرآنية تبين بوضوح أن الحرب الموجهة للسلب والغنائم وجنى المنافع المادية هى شر⁽³⁸⁾.

وفى الواقع نحن لا نميل إلى القول بأن علاقات المسلمين بغيرهم الأصل فيها أن تقوم على الحرب والقتال برغم أنه قول الجمهور وأئمة المذاهب من أهل السنة والشيعة كما سبقت الإشارة ؛ وذلك لأن المتأمل فى الأدلة التى استند اليها هؤلاء لا يجدها تجعل من أمر الله رسوله والمؤمنين بالقتال أساساً أو أصلاً ينتشر به دين الله، بل هى فقط تأمر بهذا القتال كأحدى وسائل نشر هذا الدين، وتقره حين تفشل جهود أخرى أمر بها أيضاً الحق - تبارك وتعالى - وجعل لها الأولوية فى البدء بها وهى وسائل سلمية. وجعل من هذه الوسائل السلمية وسيلة القتال جملة الأدوات أو السبل التى بها يتحقق جهاد المسلمين لنصرة دين الله فى الأرض ودعوة الناس إليه .. فإن أخفقت

الوسائل السلمية كان للمسلمين أن يلجؤوا إلى القتال - إذن فالأصل فى علاقات المسلمين بغيرهم هو السلام وليس القتال - ويكون القتال حينئذ ليس فقط دفاعاً عن النفس، بل أيضاً لإزالة العوائق التى يضعها أعداء الإسلام فى طريق الدعوة الإسلامية. وليس يخفى على أحد أن الإسلام دين السلام والأمن والمجادلة بالتي هي أحسن، كما سيتضح فى الحديث عن مفهوم الجهاد فى الإسلام فى المبحث الأول من الفصل الثالث فى هذا الكتاب .

ثالثاً - أسس ممارسة السياسة الخارجية للدولة الإسلامية .. وضوابطها :

يمكن القول بأن السياسة الدولية - أو الخارجية - للدولة الإسلامية تقوم على الأسس الثلاثة التالية⁽³⁹⁾ :

1 - قيامها على العدل بمفهومه الإسلامى، ومراعاة أن الغرض الأساسى المهيمن على سياسة المسلمين وسيرتهم فى غيرهم من الأمم هو دعوتهم إلى الله وتأليفهم على الإسلام والنظر اليهم كإخوان فى المستقبل، ولهذا تحرم النكيات والغدر ويسود حسن النية .

2 - الالتزام بالمبادئ الإسلامية فى العلاقات الدولية كجزء من القانون الداخلى للدولة الإسلامية، التزاماً بما تضمنته شريعة الإسلام وليس نتيجة للعرف الدولى Convention أو المعاهدات أو المعاملة بالمثل. وتضمنت الشريعة الإسلامية القواعد الضابطة لأحوال الحرب والسلام والعهد والأمان ونبذ العهد ... الخ.

3 - تقيّد السلطة الإسلامية فى العلاقات الدولية، وكونها منوطة إليها رعاية المصلحة الشرعية المقررة، التى هى خطاب عام للعباد : الحاكم منهم والمحكوم والمسلم منهم وغير المسلم، مع تفصيل بالنسبة للأخير.

وفى ضوء الضوابط والقواعد التالية تتم ممارسة السياسة الخارجية للدولة الإسلامية :

أ - ضرورة إصلاح المسلمين ذاتهم قبل إنطلاقهم إلى الخارج : بمعنى أنه على المسلمين أن يقوموا أولاً بمسئولية الدعوة فيما بينهم إلى إصلاح ذاتهم وبناء كياناتهم، حتى إذا قطعوا فى ذلك شوطاً كبيراً وفرغوا من تطبيق الإسلام على أنفسهم وحياتهم آن لهم حينئذ أن ينطلقوا إلى الخارج وكلهم ثقة فى حسن سيرتهم بين الآخرين ، وقد

كان الرسول ﷺ قادراً على إرسال عدد من أصحابه إلى الملوك والرؤساء فى تاريخ سابق كثيراً على التاريخ الذى بعث فيه رسله وكتبه إلى هؤلاء ، غير أن ذلك كان ينطوى على الإخلال بهذا المبدأ العام والمهم ، وهو إصلاح الذات وبنية الكيان .

ب - ضرورة الموالاة ونصرة المسلمين بعضهم بعضاً : وذلك مهما اختلفت وتباعدت ديارهم مادام ذلك ممكناً. فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين فى أى جهة من جهات الأرض ثم لم يفعلوا ذلك، فقد باؤوا بإثم كبير .

يقول أبو بكر بن العربى: إذا كان فى المسلمين أسراء أو مستضعفون، فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن، بالألأ تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم، إن كان عدونا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك⁽⁴⁰⁾. وعلى العكس : فلا يجوز أن يشيع شئ من الولاية أو التناصر أو التأخى بين المسلمين وغيرهم، وهذا ما يصرح به قول الله - عز وجل - : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئَاءَ بَعْضٌ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾⁽⁴¹⁾.

ويضيف ابن العربى : قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم .

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية، هى أساس نصر المسلمين فى كل عصر وزمن، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من كل صوب وجهة.

ومبدأ عدم موالاة غير المسلمين هو من الأحكام الإسلامية التى لم يقع فيها خلاف بين المسلمين، ولا يُستثنى من هذا الحكم إلا حالة واحدة، هى ما إذا أُجِّى المسلمون إلى هذه الموالاة بسبب شدة ضعفهم التى قد تحملهم كرها على ذلك. فقد رخص الله فى ذلك حيث قال : ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، ...﴾⁽⁴²⁾.

كذلك تجب الإشارة فى هذا الإطار إلى⁽⁴³⁾ :

(أ) أن النهى عن موالاة غير المسلمين لا يعنى الحقد عليهم؛ فالمسلم لا يحقد على أحد، إنما يغضب على غير المسلمين غضباً لله وشرعه، وشفقةً عليهم لكفرهم وعصيانهم.

(2) أن النهى عن موالاة غير المسلمين لا يعنى التساهل فى تحقيق العدل معهم واحترام المعاهدات معهم، وفى ذلك يقول الله - تعالى - : ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، ...﴾⁽⁴⁴⁾. أى لا يدفعكم كرهكم أو غضبكم على الكافرين إلى ظلمهم أو التفريط فى حقوقهم أو الاعتداء عليهم⁽⁴⁵⁾؛ فالمؤمن ليس بحاقد على الكافرين بأية حال، ولو كان يجاهدهم فى سبيل الله، وقد دل على ذلك أن بعض الصحابة طلبوا من النبى ﷺ عند منصرفهم من حصار الطائف أن يدعو على ثقيف، فقال : (اللهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم).

وبدهى أن دلالة الموالاة المقصودة فى حديثنا هنا أسمى وأشمل من دلالة المعاهدة أو التحالف ؛ فهذان الآخران جائزان مع غير المسلمين وتمليهما ضرورات الحرب والسلام، وعلاقات المسلمين بغيرهم على الساحة الدولية، وسيأتى فيما بعد حديث وافٍ عن المعاهدات كإحدى الأدوات السلمية لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية.

وبين يديك - قارئى الكريم - عرض المعالجة القرآنية لقضية الموالاة هذه : أبعادها، اتجاهاتها، ضوابطها ومرتكزاتها، كما وقفت عليها. فتأمل - مشكوراً - وأمعن معنى فى النظر فيها .

يقول الله - تعالى - :

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ...﴾ الممتحنة: 1

- ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ...﴾ آل عمران : 28

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ...﴾ النساء : 144

- ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْتَغُونَ

عندهم العزة فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ النساء : 139

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ

إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، ...﴾ التوبة : 23

- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، ...﴾ المجادلة : 22

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا
مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ، ...﴾
المائدة : 57
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . . .﴾
المائدة : 51
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم مِّنكُمْ ...﴾
المجادلة : 14
- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ، ...﴾
الممتحنة : 9
- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بِعْتَابًا، وَإِن أُوْهِنَ الْبُيُوتُ لَبَيَّتُ الْعَنْكَبُوتِ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
العنكبوت : 41
- ويقول الله - تعالى - :
- ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾
البقرة : 257
- ﴿... ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾
الجاثية : 19
- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...﴾
المائدة : 55
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ...﴾
التوبة : 71
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ...﴾
الأنفال : 72
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ...﴾
المائدة : 51
- ﴿... ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾
الجاثية : 19
- ﴿وَكَذَلِكَ تُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
الأنعام : 129
- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ...﴾
الأنفال : 73
- ﴿... ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
الأعراف : 27

ج - ضرورة قيام واستمرار العلاقات : وذلك فى المجالات المختلفة بين المسلمين وغيرهم فى الإطار الذى لا يخرج بهذه العلاقات عن شرع الله، فالأصل فى علاقات المسلمين بغيرهم هو علاقة السلم والتعايش وتبادل المصالح الدنيوية، ولا يمنع من ذلك شئ، فيحل للمسلمين أن يبيعوا ويشترىوا من غيرهم. وقد جرى على ذلك الحال منذ عهد النبى ﷺ إلى اليوم. ويستثنى من ذلك ما حرم لسبب يستوجب التحريم، مثل بعض المعاملات الخاصة مع المشركين - كحرمة ذبائهم وتزوج نسائهم - ولا يلزمنا بعد ذلك غير الحذر. وقد حذرنا الله - كذلك - من الركون إلى أعداء الإسلام، وحرّم علينا أيضاً الاستعانة بهم على المسلمين إخواننا. يقول الله - تعالى - : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ ⁽⁴⁶⁾ ، و : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ... ﴾ ⁽⁴⁷⁾ .

وفيما عدا هذا الحذر والاحتياط فليس هناك ما يمنع من التعاون معهم والاستعانة بهم قدر الحاجة. فقد التمس الرسول ﷺ النصرة من بنى ثقيف وأجاره المطعم بن عدى. وأسهم الرسول ﷺ لأناس من اليهود، استعان بهم فى إحدى حروبه، وكذلك لصفوان ابن أمية فى غزوة حنين، واستعان فى هجرته بمشرك هو عبدالله بن أريقط. والعبرة فى الاستعانة والتعاون بمصالح المسلمين وعدم التفريط فيها ⁽⁴⁸⁾ .

د - ضرورة إعمال أحكام الإسلام فى شأن استقبال الوفود الأجنبية ومن فى حكمهم، والمتأمل فى أخبار وفود العرب إلى الرسول ﷺ عقب فتح مكة يمكن أن يخلص إلى هذين الحكمين البارزين ⁽⁴⁹⁾ :

(أ) جواز إنزال المشركين فى المسجد، إذا كان يرجى إسلامهم وهدايتهم، فقد كان النبى ﷺ يستقبل وفد ثقيف فى المسجد لحادثتهم وتعليمهم. وإذا كان هذا جائزاً للمشرك، فجوازه للكتابى أولى. وقد استقبل ﷺ أيضاً وفد نصارى نجران حينما جاؤا لسماع الحق ومعرفة الإسلام .

وقد قال الزركشى : واعلم أن الرافعى والنووى - رحمهما الله - أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المسجد غير الحرم بإذن المسلم، بقيود هى :

الأول - ألا يكون قد شرط عليه فى عهد الذمة عدم الدخول، فإن كان قد شرط عليه ذلك، لم يؤذن له.

الثانى - أن يكون المسلم الذى أذن له مكلفاً كامل الأهلية .

الثالث - أن يكون دخوله لسماع قرآن أو علم أو رُجى إسلامه، أو دخل لإصلاح بنيان ونحوه. وقضية كلام آخرين - القاضي بن علي الفارقي - أنه لو دخل لسماع القرآن أو العلم وهو مما لا يُرجى إسلامه، أنه يُمنع وليس لنا أن نأذن له في الدخول : أى كما إذا كانت الحالة تُشعر بالاستهزاء أو المجاملة السياسية ابتغاء غرض معين كما هو شأن كثير من الأجانب اليوم. فأما إذا استأذن لنوم أو أكل أو نحوه، قيل : ينبغي ألا يؤذن له. وظاهره الجواز. وقال آخرون : وفي معنى ذلك الدخول لِتَعَلُّمِ اللغة والحساب وما في معناه، ولا خفاء أن موضع التجويز إذا لم يُخش على المسجد ضرر ولا تبخيس ولا تشويش على المصلين .

وأهم من ضرر التشويش، ضرر الفتنة التي قد يتعرض لها المصلون بدخول النساء غير المسلمات بأزيائهن الفاضحة.

ومثل الدخول للنوم والأكل في الحكم، الدخول للنظر في معالم البناء ونقوشه.

(2) حُسْنُ معاملة الوفود والمستأمنين. والفرق بين الوفد والمستأمن، أن الأول قادم رسولاً عن قومه. وهو يكون دائماً مكوناً من عدة أفراد، أما الثاني فقادم لنفسه يطلب الأمان في بلاد المسلمين ريثما يأخذ علماً عنهم وعن الإسلام.

فأما المستأمن فقد أمر الله بحُسْنِ استقباله والمحافظة عليه ثم إبلاغه مآمنه عندما يريد ذلك، وهذا بنص قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ... ﴾ (50).

وأما الوفود، فقد دل على هذا الحكم بالنسبة لهم أيضاً، القياس على المستأمن، وعَمَلُ رسول الله ﷺ في حُسْنِ سياسته ومعاملته معهم. وقد رأينا كيف أكرم الرسول ﷺ وفد ثقيف في القدوم والإقامة.

هـ - ضرورة أعمال أحكام سياسة الإسلام نحو المؤلفات قلوبهم : وذلك بالبذل إلى غير المسلمين من مال وإهداء وتكريم معنوي بما يؤلف قلوبهم إلى الإسلام، وبما يحقق المصلحة العامة للإسلام ودولته. وقد اختص النبي ﷺ أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم - التي أُخذت من هوازن في غزوة حنين - ولم يرأع في تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين. بل جعل الله للمؤلفات قلوبهم سهماً خاصاً

باسمهم من أسهم مصارف الزكاة الثمانية : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾⁽⁵¹⁾ . وخاصة إذا كان هؤلاء من الأشراف في أقوامهم⁽⁵²⁾ ، وكان ﷺ إذا أعطى أيّاً منهم أبان هدف هذه العطية وهو أنه يتألفهم ليسلموا⁽⁵³⁾ :

و - ضرورة إعمال أحكام الإسلام في ناقضى العهد وهم أهل الذمة الذين يمنعون الجزية أو يشاققون الله ورسوله بحرب علنا، وفي أسباب نقضهم وما يُعْتَبَرُ نقضاً خلاف في المذاهب⁽⁵⁴⁾ : فمن زنى بمسلمة فهو ناقض في بعض المذاهب. وكذا من فتن مسلماً عن دينه (بأن بشره بدين غيره)، ومن أثار فتنة، وذلك كله على خلاف وحكمه أن تزول عصمته .

وإن لحق الناقض بغير المسلمين صار حربياً.

وقد تناولت سورة التوبة أحكام كثير من ذلك في بعض آياتها.

وقد استنبط علماء الحديث والسيرة من قصة بنى قريظة حكم جواز قتال من نقض العهد، وقد جعل الإمام مسلم - رحمه الله - هذا الحكم عنواناً لغزوة بنى قريظة، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كل ذلك ينبغي احترامه والتزامه على المسلمين، ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان، وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك⁽⁵⁵⁾ .

ويدلنا فتح مكة - كما استنبط العلماء أيضاً - على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم، صاروا حرباً لهم بذلك، ولم يبقَ بينهم وبين المسلمين من عهد⁽⁵⁶⁾ .

ومنه أيضاً استنبط أن مباشرة البعض لنقض العهد تُعدُّ بمنزلة مباشرة الجميع لذلك، ما لم يبد الآخرون استنكاراً حقيقياً له، فالنبي ﷺ اكتفى بسكوت عامة قريش وإقرارهم ما بدر من بعضهم من الإغارة على حلفاء المسلمين، دليلاً على أنهم قد دخلوا بذلك معهم في خيانة العهد. وكذلك قتل ﷺ جميع مقاتلة بنى قريظة دون أن يسأل كلاً منهم هل نقض العهد أم لا. وكذلك فعل ببنى النضير، فقد أجلاهم كلهم بسبب خيانتهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، وإنما كان الذين باشروا الخيانة بعض أشخاص فقط منهم⁽⁵⁷⁾ .

وكذلك يَنْتَسَخ العَهْد بين المسلمين وغيرهم بإعلان الحِرابَةِ⁽⁵⁸⁾ ، وهذا ما استنبطه العلماء من إعلان الله - تبارك وتعالى - براءته من المشركين - فى نهاية العام التاسع الهجرى - فى سورة التوبة، خاصة الآيات من 1 - 4 . وهى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *
وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْتَقِصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ز - كما أن من القواعد الرئيسية فى نظام العقوبات الإسلامى ما يتعلق بمساواة جميع المقيمين فى دار الإسلام أمام أحكام الشريعة الإسلامية، سواء كانوا رؤساء دول أم مواطنين. فبدءاً من الخليفة وانتهاء بأى مواطن، الجميع مسئول عن جرائمه أمام القانون، ويسرى هذا على الأجانب المقيمين بدار الإسلام يستوى فى هذا ملوك ورؤساء الدول الأجنبية وحاشياتهم ورجال السلك السياسى أو الدبلوماسى وأفراد أسرهم، وهذا على عكس المعمول به فى القوانين الوضعية حالياً والذى صار جزءاً من القانون الدولى الحالى لاعتراف الدول به، حيث تُعفى القوانين الوضعية رؤساء الدول الأجنبية وملوكها وأفراد حاشيتهم من أن يُحَاكَمُوا على ما يرتكبونه من الجرائم فى أى بلد غير بلدهم سواء دخلوا هذا البلد بصفة رسمية أم غير رسمية بحجة واهية هى أن جواز محاكمة هؤلاء فى بلد غير بلدهم لا يتفق مع كرم الضيافة، كما أن هذه القوانين تعفى بصورة مماثلة المفوضين السياسيين وأفراد أسرهم بحجة أن إجراءات القبض والتفتيش والمحاكمة تعوق أداء هؤلاء لوظائفهم ، وهى حجة أَوْهَى من الحجة السابقة⁽⁵⁹⁾ .

* * * *

* * *

* *

*

مراجع الفصل الأول

- 1 - د. أحمد شلبي، السياسة في الفكر الإسلامي، ط 5، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1983، ص 30.
- 2 - سعيد حوى، الإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، 1977، ص 137.
- 3 - د. محمد محمود ربيع، النظرية السياسية لابن خلدون، ط 1، القاهرة، دار الهنا، 1981، ص 167.
- 4 - سعيد حوى، مرجع سابق، ص 139.
- 5 - شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقى العمدة، القسم الثالث، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ديسمبر 1978، ص 36.
- 6 - شاخت وبوزورث، مرجع سابق، القسم الثالث، ص ص 47 - 58.
- 7 - أبو الأعلى المودودى، نظرية الإسلام السياسية، القاهرة، دار الاعتصام، د. ت.
- 8 - د. صبحى الصالح، النظم الإسلامية - نشأتها وتطورها، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين، 1965، ص ص 254 - 255.
- 9 - المرجع السابق، الصفحات نفسها.
- 10 - د. أحمد شلبي، السياسة في الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ص 27 - 28.
- 11 - الماوردى على بن محمد حبيب المصرى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط 1، القاهرة دار الفكر للطباعة والنشر، 1983، ص 15.
- و: د. على حسن الخربوطلى، الإسلام والخلافة، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1969، ص ص 46 - 47.
- 12 - د. حامد ربيع، الإسلام و القوى الدولية، ط 1، القاهرة، دار الموقف العربى، 1981، ص ص 94 - 95.
- 13 - عبد الحميد مصطفى الشيخ، الإسلام نظام حياة، القاهرة، مطابع الناشر العربى، 1983، ص ص 19 - 46.

- 14- د. أحمد كمال أبو المجد ، السلطة السياسية في الإسلام، مجلة العربي، الكويت، عدد 309، أغسطس 1984 .
- 15- المرجع السابق، المقال نفسه.
- 16- د. مصطفى كمال وصفي، النبي والسياسة الدولية، القاهرة، دار الشعب، 1975، ص 3 .
- 17- د. محمد بهي الدين سالم، المسلمون في موكب الإنسانية، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1989، ص ص 90 - 93 .
- 18- د. حامد ربيع، مرجع سابق، ص ص 89 - 92 .
- 19- لمزيد من التفاصيل ، راجع : شاخت وبوزورث، مرجع سابق، القسم الثالث، ص ص 33 - 73.
- 20- الإمام محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د.ت، ص ص 10 - 11.
- 21- محمد حسن آل ياسين ، مفاهيم إسلامية، ط 1، بغداد، مكتبة النهضة، 1965، ص ص 106 - 108 .
- 22- مصطفى الرافعي ، الإسلام نظام إنساني، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1958، ص ص 179 - 193.
- 23- د. مصطفى كمال وصفي، مرجع سابق، مواضع متعددة.
- 24- الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق ، ص ص 83 - 87.
- 25- سورة النساء : الآية 90 .
- 26- سورة الحجرات : الآية 9 .
- 27- التوبة : 29 .
- 28- التوبة : 36 .
- 29- متفق عليه.

- 30- المُتَحَنَّة : 1 .
- 31- المائدة : 32 .
- 32- البقرة : 193 .
- 33- البقرة : 256 .
- 34- النحل : 125 .
- 35- الإمام محمد أبو زهرة ، مرجع سابق ، ص 48 .
- 36- د. بطرس بطرس غالى و د. محمود خيرى عيسى ، مرجع سابق ، ص 345 .
- 37- د. وهبة الزحيلي ، موقف الإسلام من غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامى ، بحث ضمن كتاب : معاملة غير المسلمين فى الإسلام، ج 1 ، صادر عن المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمان 1989 ، ص ص 268 - 269 .
- 38- د. محمود عبد المولى ، أنظمة المجتمع والدولة فى الإسلام، تونس، الشركة التونسية للتوزيع ، 1973 ، ص 90 .
- 39- د. مصطفى كمال وصفى ، مرجع سابق، ص ص 5 - 9 .
- 40- أحكام القرآن حـ 2 ص 876 ، عن : د. محمد سعيد رمضان البوطى ، فقه السيرة، ط 7 ، القاهرة، دار الفكر، 1987 ، ص 138 .
- 41- الأنفال : 73 .
- 42- آل عمران : 28 .
- 43- د. البوطى ، مرجع سابق ، ص 183 .
- 44- المائدة : 8 .
- 45- محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج 3 ، دمشق ، مكتبة الغزالي ، د.ت ، ص 316 .
- 46- آل عمران : 28 .
- 47- آل عمران : 118 .

- 48- د. جمال الدين محمود ، الإسلام وقضية الحرب والسلام ، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، 1980 ، ص 40 .
- 49- د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص 330 وما بعدها .
- 50- التوبة : 6 .
- 51- التوبة : 60 .
- 52- محمد علي الصابوني ، مرجع سابق، ج 5، سوريا، حلب، دار الرشيد، د.ت، ص 543 .
- 53- د. رؤف شلبي، اتجاهات في دبلوماسية الدعوة الإسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة رسالة الإمام، 1986 ، ص 108 .
- 54- مستشار محمد بهجت عتيبة، الفقه الجنائي الإسلامي، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، 1984 ، ص ص 351 - 385.
- و : د. مصطفى كمال وصفي، مرجع سابق ، ص ص 47 - 48 .
- 55- د. محمد سعيد رمضان البوطي ، مرجع سابق ، ص 238 .
- 56- المرجع السابق ، ص 283 .
- 57- المرجع السابق ، ص 284 .
- 58- المرجع السابق ، ص 322 .
- 59- سعيد حوى ، مرجع سابق ، ص ص 137 - 140.

الفصل الثاني

الأدوات السلمية في تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

مقدمة :

تتعدد أدوات تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وتتنوع بين أدوات سلمية وأخرى غير سلمية، ويأتي هذا انطلاقاً من طبيعة العمل الإسلامي العام الذي يعتمد على المرونة والتفاهم وتقديم الأولويات ودراسة الموقف بكل أبعاده المختلفة والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والمجادلة بالحسنى وبذل الجهود والتفاني فيها حفاظاً على كيان الإنسان وكرامته وكرامة الأمة وبنائها ، وعدم التجاوز أو التفريط عند التعامل مع الأطراف الأخرى .

ولتحقيق كل هذا فقد وضع الإسلام لأهله الأسس الواضحة والوسائل المتعددة لتنفيذ سياساتهم الخارجية ، الأصل فيها هو الوسائل السلمية وبذل كل الطاقة من أجل إعمال هذه الوسائل بداية ، ولا يكون غيرها إلا اضطراراً وفي إطار ضوابط ومعايير تجعل اللجوء إلى الوسائل غير السلمية رامياً إلى تحقيق هدف معين لا يتجاوز، دون إفساد في الأرض أو تضييع لكرامة الإنسان .

والواقع أنه في إطار الفكر الإسلامي فإن الوسائل السلمية وغير السلمية لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية تنتظم كلها تحت المفهوم العام للجهاد في الإسلام ، والذي سيأتي الحديث عنه تفصيلاً إن شاء الله في الفصل الثالث ، لما وقع من خلط في الأذهان بينه وبين معنى الحرب أو القتال.

وجملة الأدوات السلمية في تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية هي الكتب والرسائل والسفراء ، والمفاوضات والتحكيم ، والمهادنة وطلب الحماية والصلح ، والمعاهدات ، والإعلام والأنشطة الثقافية والاقتصادية.

وفيما يلي تفصيل لكل من هذه الأدوات ، مبينا التأصيل الشرعي لها وضوابط توظيفها.

المبحث الأول

دور الكتب والرسائل والسفراء

فـ تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

فى مستهل قدوم النبى - ﷺ - المدنية كتب بينه وبين اليهود فيها الوثيقة المعروفة بـ «دستور المدنية» . وقد تضمنت هذه الوثيقة العديد من الأحكام الدولية التى ستلزم هذه الدولة الوليدة ⁽¹⁾ .

واعتبر هذا الكتاب المهم فى أصله وطبيعته مؤادعة - نوعاً من المعاهدات - بالنسبة لليهود ⁽²⁾ .

وكانت بداية مرحلة الكتابة إلى الآخرين خارج المدينة - الدولة الإسلامية الوليدة - عندما استقر للمسلمين أمرهم بعد صلح الحديبية - 6 هـ - حيث لما رجع الرسول ﷺ من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله ، وكذلك فعل من بعده خلفاؤه - رضى الله عنهم - .

وكما أورد الطبرانى ⁽³⁾ ، فقد خرج رسول ﷺ إلى أصحابه وقال : (إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني - رحمكم الله - ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام .. إلخ) . فقال الصحابة : نحن يا رسول الله نؤدى عنك ، فابعثنا حيث شئت .

فبعث الرسول ﷺ إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى وإلى المقوقس وإلى مسيلمة وغيرهم .. وحمل رسله كتبه وتوجيهاته ودعوته .

وتلقى ﷺ من هؤلاء ، وقد تباينت مواقفهم ودرجات استجاباتهم أو رفضهم ، بل لقد رد على ما جاء به رسله من جانب هؤلاء الملوك .

وقد ورد أنه ﷺ لما كتب إلى ملك الروم ، قيل له : إنهم لا يقرؤن كتاباً إلا إذا كان مختوماً ، فاتخذ ﷺ خاتماً من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر : الله

رسول

محمّد وختم بهذا

الخاتم الكتب التى أرسلها إلى الملوك ، ووضع خاتمه فى يمينه ، وكذا فعل من بعده كل من أبى بكر وعمر ثم عثمان ، حيث كان فى يد كل منهم خاتمه ﷺ .

وقد تباينت مضامين هذه الرسائل وأساليبها حسب الجهة المرسلة إليها ، وكذلك درجات اهتمام الملوك بهذه الرسائل ، وكذلك ردودهم عليها ⁽⁴⁾ : فقد قبل مقوقس مصر رسالة النبي ﷺ وأكرم حاملها وأحسن نُزْلَه ، بل وأهدى معه إلى النبي من مصر ، وقد احتفظ أقباط مصر بعد ذلك بها وحفظوها في أعز مكان أى في أديرتهم ، وقد نشرت صورتها مجلة «لواء الإسلام» .

وكان من أبرز ردود الاستجابة ، رد النجاشي ملك الحبشة ، حيث أعلن إسلامه قائلاً : «فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فَوَرَّبَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّ عِيسَى مَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذُكِرَتْ . وقد عرفنا ما بعثت به إلينا . وَقَرَّبْنَا ابْنَ عَمِّكَ وَأَصْحَابَهُ . فَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا وَمُصَدِّقًا . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك» . ثم قال : «فإنني أشهد أن ما تقول حق» ، وأسلم النجاشي . ويوم مات صلى عليه النبي في المدينة .

وكان من أوضح رسائل الأحكام ما بعث به ﷺ إلى «حَمِير» وإلى «نَجْرَان» ، متناولاً كثيراً من أحكام المعاملات والعبادات والعلاقة بأهل الكتاب وغيرها .

ومن أعظم ردوده ﷺ على من كذبوه ، رده على مسيلمة .

كان مسيلمة بن حبيب مدعى النبوة ، قد حمل رسولاً من عنده كتاباً إلى رسول الله ﷺ قال فيه : «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك ، أما بعد فإنني قد أَشْرِكْتُ في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم يعتدون» .

فكان رد رسول الله عليه في غاية البلاغة والحسم والوضوح

قال ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلي مسيلمة الكذاب :

السلام علي من اتبع الهدى . أما بعد :

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين» .

وكذلك عرفت السياسة الخارجية الإسلامية الرسائل الشفهية . ولعل من أبرز الرسائل الشفهية التي بعث بها رسول الله ﷺ إلى البشرية كلها ، رسالته بعد نزول سورة براءة .

ففى العام التاسع للهجرة بعث رسول الله ﷺ سيدنا أبا بكر أميراً على الحج وبعد خروجه من المدينة نزلت سورة «براءة» فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾⁽⁵⁾ فقليل : يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبى بكر. فقال : (لا يؤدى عني إلا رجل من أهل بيتي).

ثم دعا بعلى بن أبى طالب، فقال له : (اخرج بهذه القصة من صدر براءة. وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته).

فخرج على ناقة رسول الله ﷺ حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه قال: أ أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور .

ثم مضى فأقام أبوبكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج، التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر، قام على فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ وأعلن رسالته الشفهية .

وجدير بالذكر هنا أيضاً أن الإسلام أقر أعمال الحصانة والحرية الشخصية للسفراء. وقد اتبع الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون تقليد إرسال المبعوثين لأداء المهام التى توكّل اليهم . فبعث - كما ذكرنا - بالرسول إلى قيصر الروم ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر. وكان القصد من السفارة فى بعض الأحيان هو إعلان الحرب أو إجراء الفداء أو تبادل الأسرى⁽⁶⁾.

وقد أعطى القانون الدولى المعاصر للرسول أو الممثلين السياسيين مزايا يُتمون فى ضوئها أداءهم رسالتهم التى يكلفون بها، سواء أكانت رسائل مستمرة أم محدودة . وهذه المزايا هى المُعبّر عنها بالحصانة وتتمثل فى أمور ثلاثة :

أولها - الحصانة الشخصية لشخص الممثل فلا يُتعرض له ولا يُعتدى عليه حتى يستطيع أداء عمله السياسى من غير حرج ولا يُتعرض لسكنه أو أمتعته الشخصية.

ثانيها - حصانة تتعلق بالمال فيُعفى من الضرائب والرسوم فى حدود معينة.

ثالثها - الحصانة القضائية. ومن شأنها حماية البعث السياسية من الملاحقات الجنائية ومن الملاحقات المدنية المتعلقة بعملهم الرسمى .

ولاشك أن الأمور الثلاثة ليست سواء بالنسبة للشريعة الإسلامية؛ فالأمران الأول والثاني لا يوجد ما يعارضهما من أحكام الشريعة مادام الأساس هو المعاملة بالمثل . أما الأمر الثالث فهو موضع نظر⁽⁷⁾ . وقد تمت الإشارة إلى الحكم الشرعى فى مثل هذا الموقف، وذلك ضمن أسس ممارسة السياسة الخارجية للدولة الإسلامية وضوابطها فى نهاية الفصل السابق .

وقد تكاملت دبلوماسية السفراء فى الإسلام من حيث الشكل والمضمون: فمن حيث الشكل اتخذ النبى ﷺ له خاتماً يختم به رسائله، كذلك كان يبعث بالكتاب مع سفير مناسب للقوم الموجه إليهم الكتاب، بل قد تعلم كل سفير من حملة رسائل النبى ﷺ لغة البلد التى سافر إليها. وكذلك كان حسن المظهر من أهم سمات الدبلوماسية الإسلامية والقائمين بها سواء كانوا فى مهام خارج بلادهم أم كانوا فى استقبال وفود قادمة إليهم من دول أخرى. وكان النبى ﷺ إذا قدم الوفود لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك⁽⁸⁾ .

وكانت السمة العامة عند استقبال الوفود هى نزولهم فى دار الضيافة، وهى دار رملة بنت الحارث الأنصارية أو دار المغيرة بن شعبة وأحياناً يكون المسجد، وتحديد موعد سابق مع النبى ﷺ، وتوظيف مسئول لأداء المراسم، وهو سيدنا بلال وأحياناً خالد بن سعيد بن العاص، ثم تقديم هدايا إلى الوفود. وكانت الدبلوماسية الإسلامية هذه ذات أثر كبير فى هذه الوفود، فأسلم أكثرها⁽⁹⁾ .

وفى الجولات الأولى للدعوة الإسلامية حيث الحوار والمناقشات بين الرسول ﷺ وأهل الكفر كان ﷺ يصنع الطعام لهم ويولم الولايم للمدعوين أو الحاضرين فيما يعرف حديثاً بطعام عمل: سواء كان غداء أم عشاء، ولم يكن انصراف القوم عن النبى داعياً لانصرافه عنهم، فكان يكرر المائدة ثانياً وتتجدد الدعوة ليستمر الحوار والنقاش⁽¹⁰⁾ .

ويؤكد الفكر الإسلامى أن الأمان للرسول مضمون بغير شرط لكى يتمكنوا من أداء رسالتهم ولكن إن شرط لهم ذلك وكتب به وثيقة فهو أحوط. وقد ورد كذلك أن النبى ﷺ لما سمع كلاماً لم يَرْضَهُ من رسولٍ مسيلمة الكذاب، قال لهما: (لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما)، وأشاعت الألسن بعد ذلك أن الرسول لا تُقتل⁽¹¹⁾ . وقد كتب الكثيرون عن التمثيل الدبلوماسى فى الإسلام وصفات السفراء وإجراءات تعيينهم واعتمادهم ومهامهم تفصيلاً لا محل لسرده فى هذا المقام⁽¹²⁾ .

وكانت تقاليد السفارات والمعاهدات الإسلامية دائماً على مستوى يليق بالحضارة الإسلامية، وما سفارات الرشيد ومعاهدات صلاح الدين إلا أمثال تُذكر فتُشكر حتى لقد استغلها الأوروبيون ضد المسلمين وضد صلاح الدين لعظم مثالياتها، ولكنه الخلق الإسلامي السَّامح، المتمثل في مقالة أبي حنيفة: **وَأَدِّ الْأَمَانَةَ وَإِنْ خَانُوكَ**⁽¹³⁾.

فالمسلمون يعاملون العدو بأخلاق الإسلام لا بهمجية الأعداء، ولا يكفر المسلم يوماً بمبادئه وإن أفاد منها الأعداء واستخدموها ضده.

وهكذا نرى أنه منذ البداية، كان الاتصال بين الدولة الإسلامية ودولتي الروم والفرس وغيرهما عن طريق سفراء اختارهم النبي ﷺ، ولم تكن مهمة هؤلاء السفراء تتجاوز التقاليد والأعراف المتفق عليها في هذا العصر، من ناحية الشكل على الأقل. أما من حيث المضمون أو الموضوع فلم يكن هؤلاء السفراء حاملين حقائق، أو ناقلين رسائل فقط، بل كانوا دعاة على أعلى درجة من الفهم والنضج والالتزام بأقصى درجات الصدق والأمانة في النقل⁽¹⁴⁾.

* *

*

المبحث الثاني

دور المفاوضات والتحكيم

في تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

أولاً - المفاوضات :

تعنى المفاوضات بحث مواضع الخلاف وطرق حلها بدون الحرب بين طرفي الخلاف أو أطرافه المختلفة .

وهي تُعد من أهم وسائل التوصل إلى حل للخلافات بين الدول والمجتمعات، ولا يكاد أطراف الخلاف يشنون الحرب إلا بعد أن تفشل هذه الوسيلة السلمية في تحقيق هدفها، وهو منع اللجوء إلى الحرب كطريق لا مفر منه لمنع استمرار الخلاف. وتقتضى هذه الطريقة أن يجلس المسلمون وأعداؤهم للنظر في أسباب الخلاف ووسائل حله وإنهاءه ، فإذا نجح الطرفان في تحصيل مصالحهما كلياً أو جزئياً أصبح في الإمكان عقد معاهدة تُثبت فيها أسس حل الخلاف التي توصلوا إليها ، وتكون هذه المعاهدة اتفاقاً يجب الوفاء به على كل من الطرفين ، ومتى انتهى الأمر إلى ذلك استُبعدت الحرب كوسيلة لحل النزاع⁽¹⁵⁾ .

ومن الطبيعي أن يكون لكل من الطرفين مصالح متعارضة، ومن الواقع المشاهد أن يكون لكل من الطرفين قوته التي يستند إليها في تحديد مطالبه، أو يعتمد عليها آخر الأمر إذا فشل الاتفاق، ولذلك فإن انتهاء المسلمين إلى معاهدة من المعاهدات يتوقف في الواقع على مطالبهم، وهي بحسب الشرع لا يجوز أن تكون ظلماً للآخرين حتى ولو كانوا من الأعداء. ويتوقف آخر الأمر على القوة المتاحة لهم للوصول إلى حقهم إذا لم تُغنِ الطرق السلمية في التوصل إليه.

وفيما سار عليه رسول الله ﷺ نرى تشريعاً كافياً يوضح لنا كيف تكون القوة المعدة من قبل سندا لطلب الحق إذا اعتدى عليه، وكيف تكون السياسة الحكيمة سندا للتوصل إلى هذه القوة فيما بعد، إذا لم تكن متوفرة للمسلمين وقت السلم .

لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً إليها من مكة كان يعيش فيها اليهود، وقد أراد ﷺ أن يضمن الأمن والطمأنينة للمجتمع الإسلامي ، فعاهد ﷺ اليهود . وورد في صحيفة العهد⁽¹⁶⁾ - بعد أن اجتمع ﷺ بزعماء اليهود بوصفه رئيساً للمجتمع والدولة الإسلامية - أن لهم حرية الاعتقاد وأنهم يتعاونون مع المسلمين في الدفاع عن المدينة،

وأن يتناصحوا أو يتشاوروا مع المسلمين في تحقيق هذا الدفاع عند طُروء مبرراته. وكانت صيغة تلك المعاهدة وما جرى قبلها من المفاوضة يؤكد رغبته ﷺ في ضمان الأمن والسلام مع من يعايشهم ممن تختلف عقيدتهم عن الإسلام ، ولكن هذه الصيغة - وقد وردت في كتاب السيرة لابن هشام - التي لا تضع على اليهود حملاً ثقيلاً ولا تضع عليهم أعباء من أى نوع ، لم يتحملها اليهود ، لأنهم لم يريدوا وقتها مسألة المسلمين ولا معايشتهم ، فلما نقضوا العهد سواء بالإعانة على المسلمين في الحرب أم بالاعتداء عليهم أم بتدبير اغتيال الرسول ﷺ كانت قوه المسلمين كافية آنذاك لإجلالهم عن المدينة كرها أو إنزال العقوبة بهم .

ويُذكر أيضاً مثل آخر لسياسة الرسول ﷺ الحكيمة حين تفاوض مع قريش وهي في أوج قوتها، وذلك عندما خرج ﷺ مع أصحابه من المدينة « ٥ هـ » معتمراً لا يبغى حرباً ولا قتالاً ، ولكن قريشا التي كانت تغتر بقوتها في مواجهة الإسلام رفضت أن يعتمر المسلمون بعد أن وصلوا بمسيرتهم السلمية قرب مكة ، وفي الحديبية تفاوض ﷺ مع رسل مكة التي كانت تهدد المسلمين بالحرب إذا أصرروا على الدخول للعمرة ، وقبل الرسول أن يرجع المسلمون عن أداء العمرة على أن يعتمروا في عام قابل ، ودون أن يحملوا معهم سلاحاً عدا السيوف في أغمارها ، وأن يترك كل من الفريقين الآخر في سلام مدة عشر سنوات ، ومما قبل به الرسول ﷺ أن يرد إلى مكة من يأتيه مسلماً من أهلها ، ومما قبل به وصبر عليه أيضاً عنت خصومه في صياغة المعاهدة وفي ديباجتها، خاصة حين تنكر الطرف الآخر لنبوته ﷺ.

ومما أجمعت عليه كتب السيرة والتفسير بصدد تلك الواقعة أنه عندما نشب الخلاف بايع المؤمنون النبي ﷺ على النصرة والقتال معه ، وقبل النبي ﷺ محادثة المشركين ومفاوضتهم وتغاضى عن عنتهم ، ولم يجارهم في التشدد والتمسك برأيه - وكان حقاً لا ريب فيه - وذلك لأن المسلمين لم تكن عدوتهم ولم يكن عددهم يسمح بأن يصلوا إلى حقهم آنذاك ، فاكتفوا ببعضه حتى فتح الله عليهم مَعْقِلَ الشرك - مكة - بعد ذلك . والتزم ﷺ بالقدر الأوفى في تنفيذ المعاهدة التي لم تُعطه حقه كاملاً ، وأرسى أساساً رئيسياً من مبادئ الحرب ، وهو ضرورة حفظ سلامة القوات مع التصميم على الهدف ، وقد تحقق له ذلك من خلال التفاوض.

وفن التفاوض هذا، هو ما يعرف حالياً أحياناً بالدبلوماسية، وهي بالطبع ليست من الإسلام ببعيدة .

وفى مقدمة عرضه للتعريفات المختلفة للدبلوماسية، ذكر د. عز الدين فودة تعريف معاوية بن أبى سفيان .

قال معاوية : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا أرخوا شددتها وإن شدوها أرخيتها» .

ففى هذا التعبير المجازى عن كيفية تصريف الشئون العامة للدولة وسياسة الحكم، فى اتصالها بالأفراد والقبائل فى الداخل والخارج، أو بتحقيق مصالحها الدولية فى الخارج ، قدم لنا معاوية حكمة عالية تنم عن أصالة الفهم لما يجب أن تتصف به الدبلوماسية من خصائص أبرزها:

- الاتصال بالواقع وعدم الانعزال عن الناس .

- معالجة الأمور باللين والحزم، والأخذ والعطاء، والصبر والذكاء، والرؤية والأناة. وهذه كلها صفات أساسية يجب أن يتحلى بها المفاوض الدبلوماسى ، كما أن تشبيه العلاقات الدبلوماسية بالشعرة هو بلوغ الغاية فى روعة التصوير لما قد تكون عليه هذه العلاقات من دقة وحساسية، تتطلب معالجتها مهارة خاصة، هى ما نعرفه بـ «الدبلوماسية» .

وكان تعريف معاوية هذا فى القرن السابع الميلادى ، وهو القائل أيضا : (إِنِّى لَا أَضْعُ سَوْطِىَ فِى مَوْضِعٍ يَقُومُ فِيهِ كَلَامِى) مُقَدِّمًا بِذَلِكَ اللِّينَ وَالتَّفَاوُضَ عَلَى الْعَنْفِ وَالشَّدَةِ⁽¹⁷⁾ . هذا فى الوقت الذى تقوم فيه الدبلوماسية الحديثة على اتجاهات معروفة منها محاولة إقناع الطرف الآخر بكل الوسائل الممكنة : مُخَفَّاةً أو مُعْلَنَةً، مشروعة أو غير مشروعة. وقد نشطت الدبلوماسية فى العصر الحاضر فاتخذت أسلوباً آخر فى حل المشكلات يعتمد إلى التأثير فى الشعوب عن طريق عملاء أو أحزاب أو مؤسسات أخرى تستجيب للأوامر الصادرة، وهو أسلوب خسيس. كما أن السياسة الحديثة لا تؤمن بمبادئ الأخلاق بقدر ما هى مشغولة بتنفيذ مخططاتها، ولا تأبه بالقيم الحضارية فى سبيل تحقيق الأهداف التى حددتها السياسة. وليس هناك من ضغوط على حكومات الشعوب النامية سوى التحكم فى القوات عن طريق المعونات وبيع الطعام⁽¹⁸⁾ .

ولقد صار مشتهراً بين رجال السلك الدبلوماسى وصفهم بأنهم جاؤا ليكذبوا من أجل مصلحة بلادهم . فانظر كيف قُلبت الموازين فصارت الدبلوماسية الحديثة هى قتل

بعض الإنسان ليرغد البعض الآخر المتجبر . وصارت تقوم على الكذب والغش ، صارت بعيدة عن قيم الدين وتعاليمه ، صارت دبلوماسية قصيرة النفس تستعجل أطماعها ، وشاهدُ هذا ما فعله موسوليني مع بريطانيا وفرنسا وما فعله الألمان مع روسيا ، فهذه أنماط من الدبلوماسية الحديثة يرفضها الخلق الإسلامي ، وترفض الدبلوماسية الإسلامية أن تحذو حذوها ؛ لأنها دبلوماسية الصدق والوضوح والنقاء ، دبلوماسية تحترم الإنسان حتى في لحظه ضعفه ، دبلوماسية تعمل في ضوء الأخلاق والمعايير الدينية الإسلامية السامية⁽¹⁹⁾ .

وإذا كانت الدبلوماسية الدولية تركز أساساً في إيجابياتها ونجاحها على الموقف الداخلي لأية دولة ؛ حيث إن الدولة التي لا تتمتع بالاستقرار والعمل والإنتاج لا يكون لها وزن في العمل الدبلوماسي ولا السياسي دولياً وتصبح - بالتالي - نهباً لتأثير النفوذ الأجنبي .

إذا كان الأمر هكذا فيجب الإشارة أيضاً إلى أن من أبرز اتجاهات الدبلوماسية التي قررها النظام الإسلامي لدولته ما يتمثل في ترتيب الجبهة الداخلية ، وكان الإسلام الحنيف قد سبق - في هذا الصدد - إلى مستوى أفضل مما تتمناه الدبلوماسية الحديثة ، فقد عمل الرسول ﷺ على التحام المجتمع الإسلامي - بالإخاء - وترتيب بنائه - بتوزيع الثروة - وحمايته من الحرب الأهلية في إطار التوجيه القرآني : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ،... الآيات ﴾⁽²⁰⁾ . (راجع اللمحة التاريخية عن المعاهدات الواردة - فيما بعد - في بداية المبحث الرابع من هذا الفصل) .

ثانياً - التحكيم :

وهو وسيلة مهمة أخرى في تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية ، حين تفشل المفاوضات وتقترب الخطى من الحرب ، فتكون وسيلة التحكيم حينئذ درءاً للحرب . وتقوم بالتحكيم هيئة دولية تبحث أسباب الخلاف بين الدولة الإسلامية والدولة الأخرى .

وعلى ذلك فلا مانع من أن تلجأ الدولة الإسلامية إلى التحكيم ، مادام بحث النزاع لا يمس حقاً من حقوق الله ولا حقوق المسلمين العامة ، كأن يكون التحكيم بشأن مصالح مادية مما يُفَوَّض إلى إمام المسلمين التصرف فيها بلا نكير ، فيجوز له أن يتفق مع الدولة الأخرى على تحكيم طرف ثالث في النزاع⁽²¹⁾ .

ومن غزوة بنى قُريظة - 5 هـ - استنبط العلماء حكم جواز التحكيم فى أمور المسلمين ومهامهم العظيمة، والرجوع فى ذلك إلى حَكَمِ مسلم صالح عادل أهل للحكم. وقد أجمع العلماء على التحكيم أيضا فى شأن الخوارج؛ فإنهم أنكروا على على التحكيم وأقام الحجة عليهم⁽²²⁾.

والتحكيم مازال اختياريًا فى القانون الدولى المعاصر ، وتنص عليه الدول فى معاهداتها - وهذا ما يمنحه قوته - أوتلجأ إليه بعد نشوب نزاع معين وتتفق على من يحكم فى الخلاف، وقد رتب الميثاق العام المعقود فى جنيف عام 1928 الأحكام العامة للتحكيم، بحسب ما نصت عليه الاتفاقية التى وقعت عليها الدول المشتركة فى مؤتمرى لاهاى 1899 و 1907 ، وأنشأ الميثاق هيئة تحكيم دائمة، ويجرى التحكيم وفق الإجراءات التى اتفق عليها أطراف الخلاف ، وتطبق هيئة التحكيم قواعد القانون الدولى، أو القواعد المتفق عليها لحل النزاع⁽²³⁾.

* * *

* *

*

المبحث الثالث

دور المهادنة وطلب الحماية والصلح فد تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

إذا كان التفاوض أو التحكيم قد يصلان - أو أحدهما - بطرفي النزاع إلى هدنة أو صلح وكتابة معاهدة بذلك، فسوف نبين في الصفحات التالية هذه الأوضاع الشرعية والقانونية، وكيف نظمها الفقه الإسلامي لدولته .

أولا - المهادنة :

تعنى الهدنة أن يُعقد لأهل الحرب عقد على ترك القتال مدة من الزمن بعوض - مال مثلا - أو بغير عوض .

ودليل جوازها قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ جُنَحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، ... ﴾⁽²⁴⁾ ، وقوله - تعالى - : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾⁽²⁵⁾ .

وأبرز مثال للمهادنة ما كان بالحديبية، فقد صالح النبي - ﷺ - - سهيل بن عمرو على وضع القتال عشر سنين. وقد اختلف الفقهاء في مدة الهدنة بين ثلاث سنين وأربع وعشر، وقيل يجوز الزيادة. وقد رأى بعض الفقهاء - كالأوزاعي والشافعي - أنه إذا كان المسلمون ضعافا أو دعت ضرورة فتنة إلى تحاشي شر غير المسلمين جازت الهدنة معهم على مال يدفعه المسلمون⁽²⁶⁾ .

وقد جاء في فقه السيرة⁽²⁷⁾ أن العلماء والأئمة استدلوا بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم على مدة معلومة سواء كان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض . أما بدون عوض فلأن هدنة الحديبية كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى؛ لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه .

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهذا غير جائز عند جمهور المسلمين لما فيه من الصغار - الذل - لهم، ولأنه لم يثبت دليل على جواز ذلك من الكتاب أو السنة. وقالوا إلا إذا دعت إليه ضرورة لامحيص عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر، فيجوز كما يجوز للأسير فداء نفسه .

ويصح في عقد الهدنة كل شرط لا يخالف نصا في كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ ، ويبطل كل ما يعارض ذلك .

ثانيا - طلب الحماية :

يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، أم كان مشركا مثل أولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم النبي ﷺ، وكالمطعم بن عدى الذى دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته وهو عائد من الطائف، وهذا مشروط - بداهة - بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية إضرارا بالدعوة الإسلامية أو تغييراً لبعض أحكام الدين، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز للمسلم الدخول فيها. ودليل ذلك ما كان من موقفه - ﷺ - حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحملها ما لا تطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء، فقد وُطِنَ نفسه آنذاك على الخروج من حماية عمه، ورفض أن يسكت عن شئ مما يجب عليه بيانه وإيضاحه⁽²⁸⁾. (راجع أحكام الاستعانة بغير المسلمين في نهاية الفصل الثالث من هذا الكتاب).

ثالثا - الصلح⁽²⁹⁾ :

رأى الإمام أبو حنيفة جواز الصلح بين المسلمين وأهل دار الحرب إذا رأى الإمام فى ذلك مصلحة، كما قال بذلك مالك أيضا. ومحل الخلاف يقع فى الضرورة الداعية إلى الصلح . فالإمام أبو حنيفة يرى أن الصلح جائز ولو بغير ضرورة؛ لأن آية القتال : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... ﴾⁽³⁰⁾ ، ليست ناسخة قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، ... ﴾⁽³¹⁾ . ويؤيد رأى أبى حنيفة أن النبى ﷺ صالح فى الحديبية من غير ضرورة داعية، وإن كانت وراء ذلك سياسته ﷺ الحكيمة .

وأجاز البعض أن يعطى المسلمون المشركين شيئا مقابل الصلح، ولم يجز ذلك آخرون، إلا أن تكون هناك ضرورة داعية. وحجة من أجاز الإعطاء بلا ضرورة أن النبى ﷺ قد هم بإعطاء بعض الكفار الذين كانوا فى جملة الأحزاب جانبا من تمر المدينة لصرفهم عن نصرة أعدائه، فلم يوافقهم هؤلاء على القدر الذى سمح به من تمر المدينة، ثم أقام الله على رسوله بنصره ، وكانت غزوة الأحزاب - الخندق - فى شوال سنة 5 هـ.

ومن غزوة بنى قريظة أيضا - بعد عودة الرسول من غزوة الخندق عام 5 هـ - استنبط العلماء جواز مصالحة أهل قرية أوحصن على حكم حاكم مسلم عدل صالح للحكم وأمين على هذا الأمر، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين، وإذا حكم بشئ لزم حكمه، ولا يجوز للإمام ولا لهم الرجوع، ولهم أن يرجعوا قبل الحكم⁽³²⁾ .

المبحث الرابع دور المهادنات فـك تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

أولا - لحظة تاريخية :

لا تتم الهدنة أو المعاهدة طفرة واحدة بين الطرفين دون مفاوضات تمهيدية لها ورسـل يقومون فيها بدور كبير بين الطرفين⁽³³⁾ .

ففى صلح الحديبية مثلا نرى المفاوضات تدور بين قريش وبين المسلمين أكثر من مرة. وخلال الفتح الإسلامي لمصر سبقت الرسل والمفاوضات عقد الصلح، الذى تم بين المسلمين والمقوقس زعيم القبط .

وعندما فتح المسلمون بيت المقدس فى خلافة عمر بن الخطاب رأينا الرسل والمفاوضات تقوم بدور مهم فى كتابة الصلح بين المسلمين والروم .

وكذلك ما حدث فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، عندما اشتد حصار المسلمين للمدينة المقدسة - بيت المقدس - اتفق رأى أهلها على طلب الأمان والمهادنة من المسلمين وتسليم القدس للسلطان الأيوبي، وقد ظهر هنا أيضا دور الرسل والموفدين فى طلب الهدنة وكتابة الصلح .

حتى فى معاهدة تسليم غرناطة 897 هـ 1491م للإسبان بعد اشتداد الحصار عليها وبرغم مقاومة الشعب، فقد أجمع القوم على تسليم غرناطة واتفقوا على مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم .

هذا .. ولم تكن عهود الصلح والمهادنات والمعاهدات جديدة على المسلمين حين اكتمل بناء دولتهم وفتح سلاطينهم العواصم الأوربية - من أمثال محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية 1453م وسليمان القانونى الذى فتح بلجراد 1521 وفتح رودس 1522 وغزا النمسا حتى بلغ عاصمتها فيينا 1529 - فقد عرف المسلمون كل هذا منذ غزواتهم الأولى مع الرسول ﷺ، وكان فى كثير من هذه المهادنات كسب سياسى للدولة الإسلامية الناشئة آنذاك، واعتراف بكيانها السياسى . وأول ما يتبادر إلى الذهن دائما

صلح الحديبية، الذى عقده المسلمون مع قريش بعد بيعة الرضوان، وهو صلح فرضته مقتضيات الأمور على قريش حتى لا يتحدث العرب عنها أن النبي ﷺ دخل مكة عَنوة. وقد جرت فى سبيله محادثات تمهيدية طويلة قبل إمضائه والتصديق عليه .

وفى هذا الصلح دلالة دبلوماسية، ذات خطر عظيم ، فقد كان يحمل فى طياته اعترافاً ضمنياً من المشركين بالدولة الإسلامية الناشئة، وهو اعتراف من خلال الصلح المهادن، لأن مثل هذا الصلح لا يعقد بين الدولة والثائرين عليها أو المتمردين على حكمها، وإنما يكون أو يعقد بين هيئتين لكل منهما شخصية وجودية قائمة. وكان هذا هو أول نصر لدولة الإسلام من حيث كونها ذات كيان سياسى وقوام دولى. ومن الطبيعى أن يكون كل صلح يأتى بعد ذلك توكيداً لهذا الاعتراف بشخصية الدولة الإسلامية، كما حدث فى صلح خيبر بعد ذلك، وهو صلح قضى على سلطان اليهود السياسى فى جزيرة العرب⁽³⁴⁾ .

ولما استقر أمر الإسلام فى الجزيرة عمد الرسول ﷺ إلى أمرين⁽³⁵⁾ :

أحدهما - فض المعاهدات والعهود التى كانت قائمة من قبل.

ثانيهما - تصفية الأحقاد وإرساء الوصية النهائية لهذه الأمة.

فأما عن فض المعاهدات والأحلاف : ففى ذلك نزل قوله - تعالى - : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * ... الآيات ﴾⁽³⁶⁾ ، ففى الآيات الأربع الأولى من سورة براءة - التوبة - أعلن الله إنهاء المعاهدات السابقة بنص تشريعى بقوله : «براءة»، أى خلّو للذمة من التزاماتها، ولم يستثن من ذلك إلا نوعين من المعاهدات هما ماخصهما بقوله : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين ﴾⁽³⁷⁾ ، وعقد الأمان بقوله : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾⁽³⁸⁾ فأجاز بذلك دخول غير المسلم إلى دار الإسلام لمدة، ويكون آمناً ويبلغ مأمّنه بعد ذلك.

ونسخ قوله - تعالى - : ﴿ فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... الآية ﴾⁽³⁹⁾ ، ماسبق من قوله : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، ... ﴾⁽⁴⁰⁾ .

ولم يعدّ يجوز عقد الأحلاف بين المسلمين - لما ورد من الحديث فى ذلك - لأن الحلف بين بعضهم إقصاء للبعض الآخر، وكفى بين المسلمين عموماً حلف الإسلام وعقده العام، فلا يجوز أن يكون بين بعضهم مايزيد على ما بين سائرهم .

وأما عن تصفية الأحقاد، فقد كان النبي ﷺ دائماً على ذلك أولاً بأول :

- وقد رأينا كيف أحسن إلى أهل مكة لما فتحها.

- وكذلك لما غلب اليهود تزوج ابنة ملكهم : سيدتنا صفية بنت حيى بنى أخطب، وحسن إسلامها.

- وكتب الكتب إلى القبائل والملوك يدعوهم إلى الإسلام.

- كما وفدت الوفود إلى المدينة تباع في العام التاسع، حتى سمى بعام الوفود .

ثانياً - تعريف المعاهدات في ضوء الإسلام⁽⁴⁾ :

المعاهدة هي اتفاقية تعقد بين دولتين أو أكثر، بقصد تنظيم علاقة قانونية دولية معينة لخلق أو تعديل أو إنهاء علاقة قانونية دولية معينة، وتحديد القواعد التي تخضع لها هذه العلاقة.

والأصل في رأى الكثيرين من كتّاب القانون الدولي أن ينصرف لفظ «المعاهدة» بصفة خاصة إلى الاتفاقية الدولية المهمة ذات الطابع السياسى : كمعاهدات الصلح ومعاهدات التحالف وما شابهها.

والمعاهدات فى الإسلام أو العقود أو العهود لها قداستها المصونة، ولها احترامها الكبير، ويعاقب الشرع الإسلامى على نقضها بدون وجه حق. وأدلة ذلك فى القرآن الكريم قوله - تعالى - :

- 1 - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، ... ﴾ المائدة : 1
- 2 - ﴿ ...، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ الإسراء : 34
- 3 - ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، ... ﴾ النحل : 91
- 4 - ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ، ... ﴾ التوبة : 4
- 5 - ﴿ ... وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، ... ﴾ البقرة : 177
- 6 - ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، ... ﴾ النحل : 95

وكذلك ما ورد من حديث رسول الله ﷺ :

1 - (أربع من كُنْ فيه كان منافقاً خالصاً ، ... : إذا أؤتمن خان،

وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر). متفق عليه

2 - (من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته،

أو أخذ منه شيئاً بغير طيب من نفسه،

فأنا حجيجه يوم القيامة). رواه أبو داود

وكان من أبرز معاهدات حسن الحوار التي عقدها الرسول ﷺ معاهدته مع اليهود الذين كانوا بالمدينة، واشترط عليهم فيها شروطاً والتزم لهم بحقوق، وقد جاء في ميثاقها : «إن اليهود يتفقون مع المؤمنين ... الخ»⁽⁴²⁾.

ثالثاً - التكيف القانوني والبناء الفني للمعاهدات الإسلامية:

وأهم ملامح البناء الفني للمعاهدات التي تكون الدولة الإسلامية طرفاً فيها :

1 - يلاحظ في المعاهدات الإسلامية تدرجها من اليسر والإيجاز إلى التفصيل والإسهاب، تبعاً لتدرج أساليب الكلام في العصور الإسلامية المتعاقبة، حتى نذكر مثلاً لبداياتها صلح الحديبية الذي لم يزد على ثلاثة أسطر، وإن أورده ابن هشام في عشرة. وظلت المعاهدات والمهانات على عهد الأول من الإيجاز، والبعد عن زخرفة اللفظ بالمحسنات والسجع، حتى جاء عصر الصنعة اللفظية في أواخر العصر الفاطمي وماتلاه من عصور الأيوبيين والمماليك، فرأينا الإطالة حتى لقد بلغت وثيقة الهدنة الموقعة بين الظاهر بيبرس صاحب مصر وبين الفرنجة المتغلبين على بعض بلاد الشام ثمانى صفحات من القطع الكبير، وكان ذلك في القرن السابع الهجري الرابع عشر الميلادي⁽⁴³⁾.

2 - على الرغم من قوة المسلمين حينما كانوا أطرافاً في معاهداتهم الأولى مع غيرهم، فإنهم لم يعمدوا إلى المباهاة بالألقاب وأساليب التفخيم، إلا أن النبي ﷺ كان يحرص على نعته بـ رسول الله ليس افتخاراً ولا تعظيماً لنفسه وإنما تذكيراً للناس برسالته، على أن المهاندات الإسلامية المتأخرة لم يفتها أن تخلع ألقاب التفخيم على المتعاقدين : إما رفعاً لقدرهم وإما تأديباً مع خصومهم، كما صنع بيبرس مع الفرنجة، ففي معاهدته مع ملكة بيروت 667هـ جاءت هذه العبارة: (استقرت الهدنة المباركة بين

السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة). ولقد بالغ الملك الأشرف خليل المملوكى بن المنصور قلاوون فى استعمال التفخيم حينما هادن صاحب برشلونة الإسبانى 692 هـ، فخلع عليه الألقاب الآتية : (الملك، الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، الأسد، الضُرغام، المفخم، المبجل)⁽⁴⁴⁾.

3 - وكانت المعاهدات قبل تدوين الدواوين تُكتب فى مشهد من الطرفين المتعاقدين، فيُملى المُملى ويكتب الكاتب ويمضى المتعاقدان، ويشهد الشهود، ويجرى ذلك كله فى جلسة واحدة، كما حدث فى صلح الحديبية.

فلما دُونت الدواوين اختص بكتابة المعاهدات والمهادنات كبار الكتاب فى الدولة، ووضع لها من الشروط ورسوم الكتابة وقواعد العقد وصيغ التعبير وأصول التحرير ما جعلها صناعة. وجاز لنائب الخليفة أو القائد أن يمضيها نيابة عن منيبه. وجاز أن تُحمّل نسخة من المعاهدة إلى مقر الطرف الثانى مع الرسل والسفراء لإقرارها والتصديق عليها⁽⁴⁵⁾.

4 - وقد يحدث خلال مجالس كتابة المعاهدات والمهادنات مفاجآت لم تكن فى الحسبان، ولكن من وحى الساعة ومن ثمرات اللحظة، فهى إذن تحتاج إلى مزيد من الحكمة فى معالجتها إن كانت سيئة، وإلى مزيد من الحكمة فى الإفادة منها إن كانت حسنة، مع عظيم فطنة وكياسة ولباقة فى الحالين لعبور الموقف الطارئ، وكل هذا من فنون الدبلوماسية وأدوات التفاوض فى الإسلام.

وأول ما يصادفنا من ذلك فى تاريخ المعاهدات الإسلامية، ما وقع فى مجلس كتابة المهادنة بين المسلمين وبين قريش فى صلح الحديبية، فقد كان مجلس كتابتها وتوقيعها عنيفا مثيراً مملوءاً بتمثيليات مضحكة ومبكية من سهيل بن عمرو ممثل المشركين. حتى لقد كانت اعتراضاته الشكلية والموضوعية تثير حفيظة بعض الرجال من المسلمين مثل عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، ومن ذلك⁽⁴⁶⁾ : نجده أولاً يثير اعتراضاً شكلياً على افتتاح الهدنة بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم، وكانت هذه من تعبيرات الإسلام الجديدة، وأراد أن يضع مكانها عبارة باسمك اللهم وهى من عبارات ما قبل الإسلام. ثم يثير بعد ذلك اعتراضاً شديداً على تلقيب النبى ﷺ برسول الله؛ حتى لا يكون ذلك إقراراً منه ومن قريش برسالة النبى ﷺ، ويقول فى جراءة عجيبة: والله لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك. ثم يثير بعد هذا اعتراضاً موضوعياً على موعد بدء تنفيذ الهدنة فيجعلها من العام المقبل؛ حتى لا يقول العرب إن قريشاً قد أخذت ضُغطة.

وفى المجلس نفسه يثير موقفاً آخر يناقض به نفسه: حيث يصر إصراراً عنيداً على بدء تنفيذ المعاهدة - الهدنة - على واحد من المسلمين - أبى جندل - جاء من مكة هارباً مسلماً يرُسُفُ في قيوده التى قيده بها المشركون، ويريد سهيل أن يُسَلِّمَ أبو جندل إلى قريش⁽⁴⁷⁾، متمسكاً بما نصت عليه المعاهدة .

وذلك برغم أن الهدنة لم تكن قد وقّعت بعد. وحين ينبهه النبى ﷺ إلى هذا ويتلطف فى طلب هذا المسلم اللاجئ قائلاً: **أجزه لي**. فيرد سهيل فى قِحةٍ وجِرةٍ: **ما أنا بمُجيزه لك**. ويذهل اللاجئ المسلم لهذا الموقف المتعنت من المشركين ويقول: **أردُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟! ولا يخفى على أحد كيف تعامل الرسول ﷺ بحكمة ودبلوماسية مع حماقات سهيل ذاك**.

وقد حدث أيضاً مثل هذا الخلاف وهذه المناقشات الشكلية فى المجلس الذى كُتبت فيه وثيقة المهادنة بين الإمام على ومعاوية. فحين أخذ كاتب هذه الهدنة يكتب: هذا ما تقاضى أمير المؤمنين على، اعترض عمرو بن العاص على هذا التلقيب قائلاً وموجهاً خطابه إلى فريق الإمام على الحاضرين فى المجلس: **هو أميركم. أما أميرنا .. فلا. أى إنه لا يريد أن يعترف بهذه الإمرة للمؤمنين من على فى وثيقة الهدنة. وعلى الرغم من اعتراض بعض أصحاب على على هذا الموقف فقد استجاب - كرم الله وجهه - ورضى بمحو صفة الإمرة من العهد**.

وهنا تذكر الإمام على ما حدث له ومنه فى صلح الحديبية أيام كان كاتباً لذلك الصلح بيده، واعترض سهيل على صفة النبى برسول الله، فغضب على ولم يرُضَ أن يمحوها من الوثيقة، ولكن النبى ﷺ أخذ الوثيقة من يد على ومحا العبارة منها؛ مجارةً ولباقةً وكياسةً مع الخصوم، وقال لعلى: **(إنك ستدعى إلى مثلها وتُجيب)**. وقد كان.

5 - وكذلك كانت المعاهدات تختلف من حيث اشتغالها على الشروط المتضمنة لها، عدداً وقوةً، وتأثيراً، فمثلاً كانت معاهدة النبى ﷺ مع أهل أيلة قليلة الشروط، حتى بلغ عددها ثلاثة فقط، وكذلك كان صلح الحديبية متضمناً فقط بضعة شروط. ثم يمضى الزمن بالأمة الإسلامية بعض السنين فنرى المسلمين ينساحون فى الأرض ويتجهون إلى الفتوحات، وزادت المعاهدات عما كانت عليه فى عهد الرسول، واتسعت قليلاً⁽⁴⁸⁾.

فنرى المعاهدة التى عقدها عمرو بن العاص مع أهل مصر تتسع موادها وشروطها، التى اتسمت بكثرة التساهل وروح التسامح الدينى.

ويمتد الزمن مسافة أخرى، فنرى المعاهدة التي تمت بين المصريين وبين الملك الفرنسي لويس التاسع، عقب هزيمته المنكرة في الحملة الصليبية على مصر (643 هـ - 1245م)، وقد بلغت شروطها ثمانية .

ثم يمتد الزمن بالعرب والمسلمين قرنين آخرين ونصف قرن لنرى المعاهدة الأليمة - وثيقة الجلاء عن الأندلس في أكتوبر 1491 الموافق أواخر عام 896 هـ - وقد كانت أكثر المعاهدات الإسلامية اشتمالاً على مواد واحتواء على شروط، فقد بلغت شروطها وموادها سبعة وستين شرطاً ومادة.

وكان الملاحظ دائماً أنه في شروط الهدنة والمصالحة يحتاط المشترط لكل الاحتمالات، ويعمل حساباً لكل شيء. ولوحظ ذلك بشدة في الهدنة التي عقدت بين الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون السلطان المملوكي في مصر، وبين الدوق حاكم أرغونة وصاحب برشلونة في بلاد الأندلس 692 هـ. ثم تجلى كذلك مبدأ المعاملة بالمثل من جانب طرفي المعاهدة، في كل ما تضمنته من شروط وبنود. وظهر هذا جلياً في الهدنة التي عقدت بين السلطان المصري المملوكي المنصور قلاوون وولده الصالح من ناحية وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد الساحل الشامي 682 هـ من ناحية أخرى⁽⁴⁹⁾.

وقد تمكن شيوخ كتاب المهادنات والمعاهدات في العصرين الأيوبي والمملوكي من وضع شروط عامة لكتابة وتحرير هذه العهود، نستطيع أن نستشف منها بعض ملامح الدبلوماسية الإسلامية، ومن هذه الشروط⁽⁵⁰⁾ :

- أن يكون عاقد الهدنة من الطرف الإسلامي الإمام الأعظم أو نائبه المفوض إليه التحدث في جميع أمور الدولة، أو الوالي تبعاً لحالة العقود عليه : إقليمياً كان أو بعض المدن أو الأطراف .

- أن يكون في عقد الهدنة مصلحة المسلمين، بأن يكون في المسلمين ضعف أو قلة مال تستدعي ذلك، أو توقع إسلام المهانين بسبب اختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبول الجزية من غير قتال أو إنفاق مال. فإن لم تكن هناك مصلحة للمسلمين فلا يهادن الطرف الآخر، بل يقاتلون حتى يسلموا، أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

- ألا يكون العقد محتوياً على شرط يأباه الإسلام .

كما اشترطوا ألا تزيد مدة الهدنة على عشر سنوات؛ اقتداءً بما فعله الرسول ﷺ .

وبعد أن تحدث هؤلاء الشيوخ عن الشروط التي يقع الاتفاق عليها في المصالحات والهدنة ، وحاولوا أن يحددوها في أضيق نطاق، عادوا فتركوا هذا الأمر تبعاً لما تمليه ضرورات الواقع ومناسبات الحال .

فالمعاهدات قسمان : مؤقتة بمدة معلومة يجب الوفاء بها طول هذه المدة ولا يصح نقضها، إلا إذا لم يوفِ العدو بالتزامه فيها، أو ثبت لدى المسلمين قصده إلى نقضها . ومطلقة عن الزمان. ولم يفسر الفقهاء الإطلاق هنا بالتأبيد، بل فسروه مقيداً بالأسباب التي في ظلها عقدت المعاهدات، فما دامت هذه الأسباب قائمة فالمعاهدة قائمة، فإذا تغيرت الأسباب يكون للمسلمين نقضها بدون قتال، لأنهم قرروا أنه لا قتال مع تغير الأسباب إلا عند الاعتداء أو مظنة الاعتداء⁽⁵¹⁾ .

وأوضحت دراسات أخرى شروطاً قررها الإسلام أيضاً للمعاهدات، بيانها فيما يلي⁽⁵²⁾ :

- ألا تَمَسَّ المعاهدة قانون الإسلام الأساسي وشريعته العامة التي بها قوام الشخصية الإسلامية، عملاً بنص الحديث الشريف : (كل شرط خالف كتاب الله فهو باطل). رواه البخاري .

- أن تتوافق أرادتا المتعاهدين ويتراضيا دون قهر أو إكراه بالقوة بأي صورة . .

- أن تكون المعاهدة بَيِّنَةً الأهداف واضحة المعالم، تحدد الالتزامات والحقوق تحديداً لا يدع مجالاً للشك أو التأويل أو التلاعب بالألفاظ، عملاً بنص الآية الشريفة : ﴿ وَلَا تَخْلُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾⁽⁵³⁾ .

والدُّخْلُ : هو الغش الخفى يدخل في الشيء فيفسده .

ولقد أصيبت المعاهدات المعاصرة بالإخفاق والفشل وتسببت في نكبات عالمية بسبب ما تضمنته من غموض والتواء. ولعل أبرز مثال لذلك حالياً قرار (242) الصادر عن مجلس الأمن مطالباً إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، والقصة المشهورة عنه بسبب حرف التعريف (ال - The) الذي فرق بين (أرض) و (الأرض) وتسبب في خلق مشكلات كبرى مازالت قائمة بين العرب وإسرائيل .

- كذلك يجب مراعاة الدقة في التعريفات وذكر التفاصيل اللازمة وإبداء التحفظات الواجبة .

6 - ولم تَحُلْ المعاهدات الإسلامية من وقوع الإشهاد عليها وإثبات ذلك في ذيل الصلح أو المعاهدة⁽⁵⁴⁾. وقد أشهد النبي ﷺ على مصالحته مع قريش في صلح الحديبية رجالاً من المسلمين وآخرين من المشركين. وشهد على صلح بابليون الزبير بن العوام وابناه. كما شهد الكثير من الصحابة، على مصالحات عديدة في الشام وفارس. أما صلح بعلبك الذي عقده القائد أبو عبيدة بن الجراح مع أهلها فلم يُشَهِد عليه أحدًا، واكتفى في نهاية الوثيقة بقوله: شَهِدَ اللهُ وكفى بالله شهيداً.

كذلك يلاحظ في كل المهادنات وعقود الصلح التي عُقِدَتْ في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين أنها تشتمل في آخرها على أسماء الرجال الذين شهدوها وشهدوا عليها. وهو تقليد جرى عليه الرسول ﷺ في مهادناته مع المشركين واليهود والنصارى من أهل نجران وغيرهم. وقد نص القرآن الكريم على وجوب الإشهاد على العقود كما في قوله - تعالى -: ﴿... واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، ...﴾⁽⁵⁵⁾.

وفي المهادنات والوثائق السياسية زمن الرسول ﷺ كان الشهود على الصلح الذين يُنصُّ عليهم في آخر العقد اثنين - وليس أقل - فما أكثر، ولا حد لهذه الكثرة. ففي العهد الذي كتبه ﷺ للحارث بن كعب وأهل ملته من النصارى نرى أن الشهود عليه واحد وثلاثون شاهداً. ولعل هذا العهد هو أكثر العهود الإسلامية في عهد النبي ﷺ إمتلاءً بالشهود. ثم نجد بعد ذلك أن عقد التحكيم بين علي ومعاوية في حق الاستخلاف اشتمل على شهادة خمسين شاهداً: منهم ستة وعشرون من رجال علي وأنصاره وأولاده، وأربعة وعشرون من أهل الشام.

وتباين العدد من معاهدة إلى أخرى: فقد شهد اثنان على كتاب النبي ﷺ لوفد ثماله من عمان، وشهد على العهد المجدد الذي كتبه أبو بكر لأهل نجران أربعة شهود، وشهد على المعاهدة التي عقدها ﷺ مع نصارى نجران خمسة شهود.

ويلاحظ أن الشهود على هذه المعاهدات والمهادنات والصلوح هم عادة من أهل الطرفين المتهادنين؛ حتى تتوثق هذه الاتفاقات بشهادة ناس من الفريقين، وأول ما نرى ذلك في الحديبية. كذلك لم تَحُلْ المهادنات والصلوح الأولى في الإسلام من ذكر اسم الكاتب واسم من أملاها، وقد يجمع الكاتب بين الكتابة والشهادة، كما فعل معاوية بن أبي سفيان، فقد كتب عهد النبي ﷺ إلى أهل (جرش) وكان شاهداً عليه مع عمر بن الخطاب.

7 - كان التحليف يأتي أيضاً في المهادنات والمعاهدات على سبيل تأكيد العهد بالأيمن⁽⁵⁶⁾، ولم يلاحظ في المهادنات الإسلامية الأولى أنها كانت تشتمل على الإقسام والحلف، وليس في الصيغة الموثوق بها - (صلح الحديبية) شئ من هذا .

على أن بعض المعاهدات الإسلامية بعد ذلك وفي العصور الإسلامية الأولى لوحظ فيها بعض تعبيرات وصيغ خاصة تحمل معنى أخذ الذمة على الوفاء بالعهد والالتزام بالشرط؛ ففي المعاهدة التي عقدها عمرو بن العاص مع أهل مصر نرى فيها عبارة «على ما في هذا الكتاب عهد الله وذرته، وذرته رسول الله، وذرته الخليفة أمير المؤمنين، وذرته المؤمنين». وكذلك فعل خالد بن الوليد مع أهل الشام - دمشق -، وكذلك جاء وبصيغة أشد حدة في معاهدة التحكيم بين معاوية والإمام على .

بعد ذلك تفشت المبالغة في التحليف في المعاهدات والمهادنات في دواوين الدولة الإسلامية في عهود البيعة للخلفاء - حتى وصلت إلى الحلف بالطلاق - وخاصة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. وتسربت هذه الأيمان وأشد أنواع الحلف من عهود الخلافة إلى عهود وعقود الهدن والمصالحات .

ولم يجد المسلمون حين كانوا يتهادنون بأساً فيما بينهم في أخذ هذه الأيمان الغليظة عليهم، بل صارت مألوفة في كتب معاهداتهم ومصالحاتهم. ولكن غير المسلمين حين كانت تكتب لهم أمثال هذه الأيمان في مشروعات الصلح والمهادنات كانوا يتخرجون منها ويرفضونها لجريها على غير مألوفهم .

ويصادفنا في هذا حادث طريف في أيام حملة لويس التاسع على مصر. فقد كتب اتفاق تسليم دمياط ودفع الفدية عن أسرى الفرنسيين ورحيل المعتدين عن مصر وأقره الطرفان : المصري بزعامة عز الدين أيبك التركماني، والفرنسي بزعامة الملك لويس التاسع. ولكن ما كاد الطرفان يبلغان القسَم على شروط التسليم والهدنة حتى ثارت مشكلة ، فقد حلف أمراء المماليك البحرية بأنهم يعاهدون الله على تنفيذ الشروط، وأنهم إذا نقضوا عهدهم فيها صاروا آثمين حائثين، تجب عليهم فريضة الحج نذراً لله تعالى واجباً في أعناقهم وصارت نساؤهم طوالق، وخرجوا من الإسلام إلى غيره وبرثوا منه. وكانت اليمين المَعْدَّة للملك لويس التاسع وفريقه أنهم إذا نكثوا صار كل منهم بريئاً من المسيحية والمعمودية، ومنكراً للمسيح والصليب والعذراء والحواريين والقديسين والقديسات، ولكن الملك الفرنسي رفض الحلف بهذه الصيغة التي رآها خطيرة، على الرغم من إلحاح المفاوضين الفرنسيين عليه بتأدية اليمين على خطورتها في غير تردد، إظهاراً لحسن النية، وتدليلاً على صدق الرغبة في الوفاء .

ولم يقتنع الملك لويس التاسع بأن هذا اليمين لا وزر عليه فيها إلا بعد أن أُحْضِرَ له بطرق بيت المقدس - وكان شيخاً قارب الثمانين - فأكد للملك الأسير العنيد أنه ما دامت نيته صادقة ومنعقدة على الوفاء بشروط التسليم، فلا ضرر عليه ولا إثم من أية صيغة لليمين مهما كانت ، وتم بهذا حل إشكال كبير كان السبب فيه المبالغة في القسم والأيمان في كتابة العهود والمهادنات .

8 - وكان المسلمون أحرص الناس على حفظ عهودهم والوفاء بها، وهو حرص أكدته الشريعة وأوجبه الإسلام، ومن هنا شهدنا في تاريخ المعاهدات الإسلامية حرصاً شديداً على الوفاء بنصوصها والالتزام بتعهداتها، لقوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾⁽⁵⁷⁾ . وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ... ﴾⁽⁵⁸⁾ . ولا يجيز الإسلام نقض المعاهدات إلا إذا خاف من الطرف الآخر خيانة أو رأى نقضاً، فإذا بدت الخيانة وجب على المسلمين التنبُّذ والإعلام بذلك، لقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾⁽⁵⁹⁾ .

وأما إذا نقض الطرف الآخر فواجب المسلمين كذلك أن ينقضوا كما حدث بعد صلح الحديبية، فتجهز النبي لفتح مكة وفتحها بالفعل في العام الثامن من الهجرة. وكذلك فعل معاوية بن أبي سفيان عام 33 هـ مع أهل قبرص حين نقضوا عهدهم معه، ففتح الجزيرة عَنُوةً وَسَبَى من أهلها خلقاً كثيراً⁽⁶⁰⁾ .

9 - وقد يخشى أحد الطرفين المتعاقدين أن الاتفاق الذي تم في عهد أمير أو سلطان سابق لا يكون الأمير الجديد حريصاً على تنفيذه أو إمضائه، ولا يهدأ باله إلا إذا نال من الأمير الجديد توكيداً بالمحافظة على شروط الاتفاق أو تجديداً له .

وتصادفنا في التاريخ الإسلامي بعض الحوادث من هذا القبيل، ظهر فيها حرص حكام المسلمين على احترام ما أعطاه السابقون لهم من عهود⁽⁶¹⁾ :

كان النبي ﷺ قد كتب لنصارى نجران عهداً ، كما كتب لأبى الحارث بن علقمة أسقف نجران عهداً، فلما التحق عليه السلام بالرفيق الأعلى خشى أهل نجران - وهم من نصارى العرب في شبه الجزيرة العربية - أن يكون تغيير الموقف في خلافة الرسول يلزمه تغيير في موقف المسلمين من الهدن معهم، فأراد أبو بكر الصديق خليفة الرسول أن يؤكد لهم العهد بالمهادنة فكتب عهداً إلى أهل نجران يجدد ويؤكد فيه الوفاء بكل ما كتبه لهم النبي ﷺ .

ولما رأى عمر بن الخطاب - حين تولى الخلافة - أن ينجلى نصارى نجران عن ديارهم؛ حتى لا يكون فى الجزيرة دينان، لم يكن ذلك منه نقضاً لمعاهدة النبى ﷺ لهم، ولا مخالفة لتجديد أبى بكر العهد لهم، بل كان ذلك يرجع إلى (تكييف عام لسياسة الدولة اقتنع به عمر، فنفذه فى عدل وحزم)، كما يقول د. محمد حسين هيكل. ويتجلى عدل عمر فى ذلك الموقف حين يعرضهم أرضاً جديدة خارج الجزيرة، وحين يخيرهم البلدان التى يرغبون المقام بها، وأمر عماله أن يعلنوهم أن الخليفة يجليهم بأمر الله ورسوله ألا يترك فى جزيرة العرب دينان، وكتب لهم عهداً بالحماية والرعاية أشهد عليه عثمان بن عفان ضمن لهم فيه ما كتب لهم محمد ﷺ وأبو بكر الصديق .

فلما جاء عثمان بعد عمر - رضى الله عنهما - وكان عارفاً بمسألة هؤلاء النصارى لم يتخل عنهم وكتب إلى عامله على العراق يستوصيه بهم خيراً ويأمره بأن ينظر صحيفة عمر لهم فيوفيهما ما فيها .

ولما تولى الخلافة على بن أبى طالب خاف النجرانيون أن يكون قد بدا للخليفة الجديد شئ من أمرهم، فجاء إليه وقد كبير منهم وأروه العهود السابقة، فجدد لهم عهداً ألزم فيه نفسه باحترامها. وهكذا فلا أظننى أجِدُ فى طول التاريخ وعرضه مثل هذه التوكيدات المتوالية المرة بعد المرة، من رجال دولة فى معاهداتهم مع الأطراف الأخرى، كما فعل الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ.

وهناك مثل آخر للدلالة على مبلغ احترام المسلمين لما سبق أن أعطاه حكامهم من عهود : فإبان حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى، وبعد هزيمته فى دمياط، وأسرره وحبسه فى سجن بمدينة المنصورة، كتب الصليبيون شروط الهدنة وموعد التسليم والجلء عن الأراضى المصرية، وقام بتسليمها إلى السلطان توران شاه جماعة من كبارهم، منهم بطرس كونت بريتانى، والمؤرخ جوفانفيل وعدد من أشرف وأمراء الفرنسيين والصليبيين، ولكن السلطان توران شاه لقي حتفه فى النيل جريحاً حريقاً غريقاً، وكان قد أقر شروط الهدنة والتسليم اتفاقاً ومفاوضة، لا كتابة، فلما جاء بعده الأمير المعز أيبك التركمانى وقام معه الصليبيون بمفاوضات جديدة، رأى ألا يغير من الشروط السابقة شيئاً، وانتهى الاتفاق بين المعز أيبك والملك لويس التاسع على إمضاء الشروط أنفسها؛ احتراماً لما سبق إعطاؤه من تصديق من جانب السلطان توران شاه الصريح.

10 - وكان المسلمون فى معاهداتهم ومهادناتهم يؤمنون غيرهم على أنفسهم ومللهم وأرضهم، فلا يغيرون على أهل ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ومن الجهة الأخرى

فقد جهد المسلمون أن يحتفظوا في معاهداتهم ومهادناتهم بقوتهم المادية وعدتهم الحربية وعزتهم المعنوية والأدبية، فمن سب مسلماً أو استخفَّ به نال عقوبة، فحفظوا بذلك حق أنفسهم على غيرهم وحق غيرهم عليهم⁽⁶²⁾.

11 - ومما كان يميز مصالحات ومهادنات المسلمين - خاصة في العصرين الأيوبي والمملوكي - **احتجاجهم فيها بأصول فكرهم السياسي** عند تحرير هذه الوثائق.

فبعد التصدير والافتتاح، تأتي مقدمة يذكر فيها الكاتب السبب الذي أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة، فإن كان الطرف الآخر غير مسلم احتج كاتب الهدنة في وجوبها بالائتمار بأمر القرآن الكريم والانقياد له، حيث أمر الله ورسوله الكريم بإجابة الصلح والجنوح إلى السلم، في قوله - تعالى - : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، ...** ﴾⁽⁶³⁾. وإن كان الصلح بين طرفين مسلمين احتج كاتب الهدنة بقوله - تعالى - : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، ...** ﴾⁽⁶⁴⁾، كما يحتج بالأحاديث النبوية الشريفة التي تحذر المسلمين من مقاتلة بعضهم البعض⁽⁶⁵⁾.

12 - وكثيراً ما كان المسلمون في معاهداتهم ومهادناتهم يراعون جوانب إنسانية نبيلة. ويلزمون أنفسهم باحترامها والتقيّد بها. وخذ ما شئت من معاهدات صلح الحديبية وأيلة، ومعاهدة صلح خالد بن الوليد مع الشام، ومعاهدة أبي عبيدة بن الجراح معهم ومع أهل بعلبك، وصلح عمرو بن العاص مع أهل مصر، ومعاهدة عبدالله بن أبي السرح مع أهل النوبة، ومعاهدة المصريين مع لويس التاسع ملك فرنسا عقب هزيمته وأسره في مدينة المنصورة، وغير ذلك كثير تلمس وتجد فيه الجانب الإنساني الكريم، وتجد مظاهر الرحمة والعدل والإنصاف وخوف الله والإشفاق على المهزوم أو الجانب الضعيف، كما تجد فيها حسن النية في الاشتراط والتنفيذ والبعد عن الانتقام بحال من الأحوال⁽⁶⁶⁾.

رابعاً - أطراف المعاهدات⁽⁶⁷⁾ :

أيا كان الوضع أو الحال، حال التعاهد بين الدولة الإسلامية وبين المتفقين أو المتخاصمين معها، فإن كل طرف من الأطراف يمثل في الوثيقة المكتوبة شخص واحد في الغالب، وهو عادة من جانب الدولة الإسلامية نبي الأمة أو الخليفة أو الملك أوقائد الفتح أو عامل هؤلاء أو أى شخص يستمد سلطته من رئيس الدولة.

وفى معاهدات النبى ومصالحاته كلها التى رواها لنا التاريخ، كان عليه السلام دائماً هو وحده الطرف الأول، لم يُشْرِك معه غيره من المسلمين. ولم تكن مشاركاتهم معه فى العهود إلا بمقدار أدوارهم فى كتابة العهد وفى الشهادة عليه.

وفى معاهدات القادة الفاتحين من المسلمين نرى أن الطرف المسلم فى المهادنة يمثلُه واحد فقط هو قائد الفتح :

فعمرو بن الخطاب هو وحده الطرف المسلم الأول فى معاهدته مع أهل بيت المقدس سنة 15 هـ . وعبد الله بن أبى السرح هو وحده الطرف المسلم الأول فى معاهدته مع أهل النوبة. وأبو عبيدة بن الجراح هو الطرف المسلم فى مصالحته مع أهل دمشق، وخالد بن الوليد هو الطرف المسلم الأول فى معاهدة المسلمين مع أهل الشام 13 هـ. وحبيب بن مسلمة هو وحده الطرف المسلم الأول فى معاهدته مع أهل الديبل فى أرمينيا. ونعيم بن مقرن هو وحده الطرف المسلم الأول فى معاهدة المسلمين مع أهل الرى. وحذيفة بن اليمان هو وحده الطرف المسلم الأول فى معاهدة المسلمين مع أهل ماه دینار ببلاد فارس. ونادراً ما كان الطرف المسلم يمثلُه أكثر من شخص واحد، كما سنرى بعد قليل .

وفى الوقت نفسه لم يكن الطرف الإسلامى يتدخل فى اختيار الطرف الآخر لمثليه، سواء أكان شخصاً واحداً أم أكثر من شخص، كما قد يكون قوماً بأجمعهم أو شعباً أو أهل بلد بأكملهم :

ففى معاهدة النبى ﷺ مع نصارى نجران كان الطرف الثانى فيها (أهل نجران) بدون ذكر شخص يمثلهم فى وثيقة المعاهدة، وكذلك فى تجديد أبى بكر الصديق لهذه المعاهدة، كان الطرف الثانى فيها هم (أهل نجران). وكذلك فى معاهدة عتبة بن فرقد - عامل عمر بن الخطاب - نرى الطرف الثانى فيها هم (أهل آذربيجان): سهلها وجبالها وحواشيها وشفارها وأهل ملها كلهم.

وفى معاهدة المهادنة التى تمت بين الظاهر بيبرس المملوكى المصرى وبين الفرنجة بالشام - أى الصليبيين - عام 669 هـ نرى أن الطرف الأول الممثل للمسلمين فيها هو الملك الظاهر بيبرس نفسه وولده الملك السعيد - فكان اثنان يمثلان طرفاً واحداً - أما الطرف الثانى الذى يمثل الصليبيين الاسبتاريين فهو: « المقدم الجليل افريز أولد كال مقدم جميع بيت اسبتار سراجون بالبلاد الساحلية، وجميع الإخوة الاسبتارية ».

وفى الهدنة التى عقدت بين المنصور قلاوون المملوكى المصرى وبين الفرنجة من أصحاب عكا وسواحل بلاد الشام 682 هـ، نرى الطرف الأول الممثل للمسلمين شخصين هما: السلطان المنصور قلاوون وولده الملك الصالح على، والطرف الثانى الذى يمثل نصارى الفرنجة هم: «مقدم مملكة النصارى بعكا، ومقدم بيت الديوية، ومقدم بيت الاسبتارية، ونائب مقدم بيت الاسبتار».

وقد نجد بعض النساء أطرافاً فى المعاهدات الإسلامية التى كان يعقدها المسلمون مع غير المسلمين، وذلك على ندرة نادرة، حينما لا يكون هناك مفر من أن تمثل الطرف الآخر ملكة أو امرأة غير مسلمة، فقد عقد السلطان الظاهر بيبرس المملوكى المصرى 667 هـ هدنة مع ملكة بيروت من البلاد الشامية حين كانت بيدها، وكانت هذه الملكة من الصليبيين.

وإذا كانت المعاهدات الإسلامية التى تحدثنا عنها قد وقع معظمها بين جانب مسلم وآخر غير مسلم، فقد وقع الاتفاق أيضاً - أو المهادنة - بين طرفين مسلمين، كالذى حدث بين على ومعاوية، وتوافقاً على أن يقيما حَكَمَيْنِ بينهما، وأن يضعا فى ذلك كتاباً هو عقد الاتفاق أو وثيقة المهادنة بين الطرفين، وهو وضع غريب أدى إليه غرابة ما حدث من فتنة وخلاف بين الطرفين آنذاك، فالمفروض ألا يحارب المسلمون بعضهم بعضاً ولكن حدث أن وقع ذلك. وقد عقدت الهدنة - الأولى من نوعها فى الإسلام - عام 37 هـ، بين الطرفين: على بن أبى طالب وشيعته، ومعاوية بن أبى سفيان وشيعته.

خامساً - نقض العهود .. وفسخها :

نقض العهود يكون دائماً بالأفعال لما وقع عليه الشروط، وحصل عليه الاتفاق، وتم عليه التصديق. فهو لا يحتاج إلى إبلاغ أو إنذار. أما الفسخ فيكون بالكتابة أو على السنة الرسل. وإذا كان الفسخ من جانب واحد من الجانبين الموقعين على العهد فهو «فسخ»، وإذا كان من الجانبين جميعاً فهو «مفاسخة»، والفسخ والمفاسخة من حقوق العاقد إذا لم يُرد أن يمضى فى العهد إلى أجله، أو يبلغ به نهاية مدته. أما «النقض» فهو نكث بالعهد وغدر بالمعهود إليه، وهو عمل لا يجوز فى شريعة ولا يحل فى دين، ولا يصح فى مذهب. ولهذا كان النقض للعهود والمهادنات يقابل دائماً بتجديد القتال من الطرف الذى وقع الغدر عليه وأثر النقض فيه. ويلاحظ ملحظ دقيق بين النقض والفسخ فى العهود، فقد يلجأ أحد الطرفين المتعاقدين إلى الفسخ حين يتبين فى سلوك الطرف الآخر غدراً أو احتمال غدر، فهو سبيل يركبها المضطر إلى ملاقاته غدر يتوقعه، أو حيف يترقبه، أما نقض العهد فهو غدر فى ابتدائه وانتهائه، فلا سبيل فيه إلى اعتذار أو قبول اعتذار⁽⁶⁸⁾.

كان نقض قريش لصلح الحديبية - وهو لا يزال نَدَى المداد - دليلاً على سوء نيتها نحو المسلمين، وكان النقض قد حدث بطيش جماعة من سادات قريش وشبابها. وكان يمكن أن يمضى هذا الصلح على وجهه وإلى مدته - سنتين أو عشرًا على اختلاف الأقوال - لولا هذا النقض من جانب قريش. ولقد خافت فئة الحكماء مغبة ما فعله سفهاؤهم، وأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليصلح ما فسد وليثبت صلح الحديبية ويزيد من مدته، ولكن طبيعة الأمور والأحداث قضت أن يتجهز المسلمون لفتح مكة، رداً على ما كان من مهزلة نقض الصلح، وفتحت مكة فتحة مُؤزراً للإسلام. وهكذا كان نقض صلح الحديبية سبباً في إيدان المشركين بالحرب التي أدت إلى الفتح المبين، وكذلك كان المسلمون يفعلون دائماً مع الذين ينقضون عهودهم معهم، يعاودون القتال حتى يقضى الله فيهم أمره، فليس من جزاء عادل لنقض العهود إلا مُعاودة قتاله حتى يثوب.

- ولقد انتقضت أفريقية بعد فتح المسلمين الأول لها، فسير معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج السكوني، فخرج إليها وهي نار تضطرم. ولقى بجيشه جيش الروم وعلى رأسه البطريق الذي نقض العهد، فانهزم الروم وأعيد فتح أفريقية ثانية.

- نقض أهل فارس الصلح مع المسلمين عام 29هـ، فسار اليهم عبيد الله بن معمر، ولما قُتل حل محله عبد الله بن عامر الذي جاء من البصرة مسرعاً إلى فارس بعد ماسمعه من أنباء انتفاضاتها.

- وفي عام 33 هـ نقض أهل قبرص عهدهم مع المسلمين الذين أخذوه عليهم حين فتحوا الجزيرة عام 28 هـ. فرأى معاوية بن أبي سفيان وجوب قتالهم، فغزاهم وفتح الجزيرة عنوة. فعادوا ونقضوا عهداً آخر مع المسلمين في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، فأرسل اليهم أحد قواده على سواحل مصر والشام، فبلغ جزيرتهم وهدم فيها وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً. ومن الذين نقضوا عهودهم مع الرشيد أيضاً «نقفور» ملك الروم الذي تولى الحكم فيها بعد الملكة «إرينى» التي كانت تؤدي للعرب كل عام مالاً على صلح بينها وبينهم. ولكن هارون الرشيد بجيشه حرق بلاد نقفور وغنم منها، فسأله نقفور المصالحة على مال يدفعه كل عام، ثم عاد فنقض هذا العهد مما جعل الرشيد يعود إليه ليلقنه درساً آخر في احترام العهود.

- ولعل أشنع نقض للعهود في تاريخ المعاهدات الإسلامية ما حدث من الفرنجة بعد تسليم غرناطة بشروطه السبعة والستين عام 897 هـ: فقد أخذوا عقب التسليم مباشرة ينقضون تلك الشروط شيئاً فشيئاً، وبالغوا في ذلك حتى حملوا المسلمين على التنصر، وبالغوا في تقتيلهم إلى أن تم إجلأؤهم تماماً عام 1010 هـ.

المبحث الخامس

دور الإعلام والأنشطة الثقافية والاقتصادية

فـك تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

إذا كان قد برز في العصر الحديث دور الأنشطة الإعلامية والثقافية والاقتصادية الخارجية للدول المختلفة كوسائل أو أدوات أساسية أو مساعدة - على أقل تقدير - في تنفيذ السياسة الخارجية لهذه الدول، فإن هذا ليس بجديد بالنسبة لدولة الإسلام في عصورها المختلفة كما تبين السطور التالية :

أولاً - الأنشطة الإعلامية :

عُرف الإسلام بأنه دين دعوة أو دين إعلامي؛ فالإعلام والدعوة يحملان المعنى نفسه على الصعيدين النظري والعملی، والفارق بينهما هو فقط في حدائـة كلمة «الإعلام» وعراقـة كلمة «الدعوة»⁽⁶⁹⁾.

والإسلام يقوم على أساس التوحيد والسيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية على حد سواء، وهي سيطرة تنهض على مبادئ الخير والحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما كان الإعلام جزءاً لا يتجزأ من النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي للمجتمع فلا بد أن يقوم على هذه المبادئ والأسس والقيم الإسلامية ذاتها⁽⁷⁰⁾.

ولكى أشير إلى مكانة الإعلام في الإسلام فسوف أقدم هنا إيجازاً لبعض الحقائق المؤكدة لهذا المعنى، والتي فصل المتخصصون الحديث فيها⁽⁷¹⁾.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياة إعلامية حافلة كان فيها الداعي الأول لهذا الدين، حقق فيها منجزات هائلة تحقيقاً للمهمة التي كلف بها وهي مهمة إعلامية بالدرجة الأولى، ولن نكون مبالغين إذا اعتبرناه ﷺ في هذا المجال عبقرية إعلامية يتضاءل بجانبه جهابزة الإعلام؛ فقد اكتشف أهمية الإعلام لنشر دعوته ومارس العمل الإعلامي بفنونه المختلفة وخططه العملية الدقيقة في إطار منهج إعلامي واضح .

وتوضح العديد من الآيات القرآنية ملامح المهمة الإعلامية التي نيّطت برسول الله ﷺ، وكلها معانٍ اشتملها العمل الإعلامي، واقرأ قوله - تعالى - : ﴿... إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغَ، ...﴾⁽⁷²⁾، وقوله: ﴿... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾⁽⁷³⁾، وقوله: ﴿... فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾⁽⁷⁴⁾، والبلاغ هنا هو الإخبار أو الإعلام برسالة الحق.

وتبين آيات القرآن الأسلوب الراقى فى ممارسة الدعوة أو الإعلام، معتمداً على الإقناع وليس على الإكراه، ومعتمداً على الكلمة الطيبة والجدال بالتي هى أحسن. واقرأ قول الحق : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ... ﴾⁽⁷⁵⁾، وقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، ... ﴾⁽⁷⁶⁾، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾⁽⁷⁷⁾.

ثم إن الرسول ﷺ أقاد من وسائل الإعلام المتاحة فى عصره ولم يُسقط منها واحدة بل عدل مسارها وطور أهدافها لخدمة الإسلام، فقد استعمل الخطابة والاتصال الشخصى، والشعر والأسواق الثقافية التى كانت بمنزلة مؤتمرات ومآدب فكرية، ولم يحصر الإسلام نفسه فى إطار تلك الوسائل التقليدية بل أوجد لنفسه وسائل إعلامية أخرى - وإن كانت دينية متخصصة - كخطب الجمعة ودروس الوعظ والقراءة الحسنة والأذان والمكتبات الإسلامية، والمسجد عامة داخل وخارج الدولة الإسلامية، والحج كشعيرة وملتقى إسلامى عالمى، وكذلك استُخدم القصص الإسلامى كأداة تعبير إعلامى وسياسى، وكان القصص القرآنى - خاصة - من أعظم وسائل الدعوة الإسلامية.

ولقد كان تبليغ الرسالة والإعلام بالدين الحق أسمى واجبات المسلمين مهما كانت العقبات. وإذا كان الملوك والجبابة لا يُقرُّون حرية الإعلام الإسلامى ولا يُمَكِّنون الرسول الكريم من أداء رسالته، فكان لابد من تهئية جو الحرية الذى يتلقى فيه الناس دعوة الحق، ولهم بعد ذلك الخيار المطلق بين الإسلام وغيره، وهكذا كتب على المؤمنين القتال؛ لكى يطهروا الطريق أمام الإعلام والدعوة باسم الإسلام، ويُهَيِّئُوا المناخ اللازم لإبلاغ كلمة الله للعباد⁽⁷⁸⁾.

ولكى تكون هذه الدعوة عامة وتُحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى كل الشعوب، نراها تتخذ هيئة إعلام خارجى عالمى على شكل رسائل يحملها رسل النبى ﷺ وسفراؤه - فى السنة السادسة من الهجرة - إلى ملوك ذلك العصر وأمرائه وحكامه⁽⁷⁹⁾.

وصرح الرسول ﷺ - بكل وضوح - بأن الإسلام ليس مقصوراً على العرب، كما أكد له ربه هذا المعنى مراراً، ولذلك فإن الإعلام الإسلامى - بناء على ذلك - إعلام عالمى دولى بالضرورة؛ لكى ينجز رسالة الإسلام السامية على مر العصور⁽⁸⁰⁾.

وتؤكد رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس - على سبيل المثال - ومقام به حاملها من اتصال شخصى بالمقوقس، أن رسول الله ﷺ قد أرسى دعائم الاتصال الشخصى المباشر فى حقل الإعلام الإسلامى، وهو أسلوب من أنجح أساليب الإعلام وأكثرها تأثيراً،

كما تنفى هذه الرسالة أيضاً إدعاء المؤرخين بأن الدبلوماسية لم تعرفها البشرية قبل القرن الثالث عشر الميلادى، وأن هذا الفن إنما بدأ فى القاتيكان على يد أحد الباباوات منذ أخذ البابا يبعث بالوفود إلى الملوك والأمراء لأغراض دينية وأغراض سياسية⁽⁸¹⁾.

يؤكد المعنى السابق أيضاً أن الرسالة الإعلامية الإسلامية قد تكون رسالة دينية بحتة كالبحث على أداء العبادات أو تفسير آيات القرآن، وقد تكون رسالة عامة تفسر آخر الأنبياء السياسية أو الاقتصادية وتعالج أحدث القضايا المعاصرة ولكنها تتناول هذه الأمور من منظور دينى. كل ذلك يأتى انطلاقاً من النظرة الشمولية للدين الإسلامى الذى جاء شاملاً جامعاً لحياة المسلمين فى شتى المجالات⁽⁸²⁾.

وحيث يُدرج فى ظاهرة الاتصال العديد من المصطلحات المتقاربة : أهمها الإعلام والدعاية والدعوة والتعليم وغيرها، فعمل كلمة الدعاية من أقدمها جميعاً، وقد عرفها التراث الإسلامى منذ نزول القرآن الكريم. قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾⁽⁸³⁾. وجاء فى رسالة النبى ﷺ إلى قيصر :

(... فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ...).

ثم تكررت كلمة «دعاية» فى كُتُب النبى ﷺ فى حملته الإعلامية الكبرى الموجهة إلى العالم منذ السنة السادسة للهجرة. وظلت كلمة دعاية من الكلمات الطيبة التى تعبر عن المعانى السامية للعقيدة الإسلامية حتى أساءت استخدامها الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الثالث عشر، وعندما أنشأ البابا إيربان الثامن مجلس الدعاية لنشر العقيدة الكاثوليكية لمواجهة البروتستانتية وللتبشير بعد ذلك، ثم تدهور معنى الكلمة أكثر فى عالمى السياسة والاقتصاد بعد ذلك، وخاصة بعد ظهور المبادئ الشيوعية والفاشية والنازية، وأصبحت الدعاية ركناً أساسياً لتلقين هذه المذاهب ثم للترويج للسلع والمنتجات، ولجأت فى ذلك إلى استعمال كافة الأدوات المتاحة دون حرج أو ضوابط أو معايير قيمية أو أخلاقية⁽⁸⁴⁾.

بل أصبحت الدعاية هى خُدعة الإعلام الكبرى، وظيفتها الإقناع، تحمل الشر والكذب، تعمل فى أناة على تهيئة عقول الأفراد أو المجموع بما يتسنى لها من وسائل مُخفأة للغايات التى تنشدها، وقد اتخذت الدعاية صورتها الحاضرة خلال الحرب العالمية الأولى فاخترعت الأكاذيب وحبكت الخُدع السياسية، وفاقت دعاية الحلفاء دعاية الألمان حينذاك، مما حمل الألمان فى الحرب الثانية على هذا القصد، وفاقت دعايتهم دعاية

الحلفاء وسارت مع العمليات الحربية جنباً إلى جنب بل كانت تسبقها. وأصبحت الدعاية من بُعد طابع الدولة الحديثة تمدّها وسائل الإعلام الحديثة بكل ما تحتاج إليه للوصول برسالتها إلى عقول الناس من أى قبيل⁽⁸⁵⁾.

حتى كلمة الإعلام بمعناها الحديث الرامى إلى تزويد الناس بالأخبار والمعلومات الصحيحة والحقائق، التى تساعد على تكوين رأى عام صائب تجاه الوقائع والمشكلات، لكى يعبر هذا الرأى العام بموضوعية عن موقف وعقلية الجماهير. نقول : حتى كلمة الإعلام قد أخذت هى الأخرى تتسم بالسّمات نفسها التى لحقت بالدعاية؛ نتيجة لما حدث ووقع على الممارسات الإعلامية من تزييف وعبث، وأساليب فى العرض توحى بأشياء يقصد إليها القائم بالاتصال وتميل إلى التحيز وعدم الموضوعية.

غير أن المتصفح كتابَ الله - عز وجل - يستوقفه أن القرآن الكريم يعبر عن الفكرة الإعلامية الواجبة بلفظ آخر بديل عن «الإعلام» هو «الدعوة»^(*)، والواقع أنها وظيفة رسل الله جميعاً الداعين إلى دين الله : مبادئه وشرائعه وسننه وعقائده بالوسائل والكيفية والمنهج الذى رسمه لهم الله. وهى عملية متكاملة تكامل العملية الإعلامية والاتصالية : من حيث القائم بالاتصال والوسيلة والرسالة والجمهور المستهدف ورجع الصدى .

-
- (*) جدير بالذكر أن كلمة «الدعوة» وردت فى القرآن الكريم ست مرات، ولها معان أربعة :
- 1 - ذكرت هذه الكلمة بمعنى «الإعلام والدعاية» فى القرآن الكريم مرتين، ولا يخفى على أحد وزنها وأهميتها، فى مجال التبليغ ونشر دين الله فى الآفاق، فكل تحرك لنشر هذا الدين وإعلاء كلمته يندرج تحت مظلة «الدعوة الإسلامية»، يقول الله - تعالى - :
 - (له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ...) الرعد : 14
 - (وانذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك ونتبع الرسل، ...) إبراهيم : 44
 ومن نافلة القوم أن نشير إلى المعانى الثلاثة الأخرى التى جاءت بها كلمة «الدعوة» فى القرآن الكريم :
 - 2 - جاءت بمعنى «الحجة أو السُّند أو الدليل» كما فى قوله - تعالى - :
 - (لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ...) غافر : 43
 - 3 - وجاءت بمعنى «النداء أو الاستدعاء» كما فى قوله - تعالى - :
 - (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وجاءت بمعنى «الدعاء» كما فى قوله - تعالى - :
 - (وإذا سألك عبادى عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، ...) البقرة : 186
 - (قال قد أجيب دعوتكما فاستقيما ...) يونس : 89

والإعلام طاقة كبرى وقوة خطيرة علينا أن نبذل كل المحاولات الصادقة في سبيل الإفادة من وسائله، وتحويلها إلى أجهزة بناء للمجتمع الإسلامى، وينبغى ألا نقف مكتوفى الأيدي إزاء هذا الغزو الفكرى والثقافى الرهيب من وسائل الإعلام الأجنبية. وإذا كان الإسلام يقر التوجه إلى عقول الناس بالفكر والحكمة فإنه يرفض تماماً إثارة الغرائز الدنيا والرغبات الحسية وصياغة الأكاذيب المضللة والغوايات الخادعة. وإن أكبر خطأ يرتكبه الإعلام الإسلامى بكل من يعمل فيه من دعاة وخطباء وأئمة وصحفيين وإناعيين وناشرين وكتاب وعلماء ومعلمين وفنيين وغيرهم أن ينعزلوا بأنفسهم عن أخطار الاتصال الجماهيرى والدعاية، تاركين أفراد الأمة يسقطون صرعى فى الهوان المتكرر والإلحاح المدبر والتخطيط الشيطانى المدمر. بل على الأمة الإسلامية أن تتصدى بكل أدوات المواجهة وتدافع عن كيائها ووحدتها، ومن أهم مهام الإعلام الإسلامى: تجديد الدعوة إلى التوحيد وتحرير العقيدة وتأكيد معنى الحرية والوحدة الإسلامية ... الخ⁽⁸⁶⁾.

وإذا كانت جماهير الإعلام الإسلامى تنقسم إلى : الملأ والعامه والمنافقين والعصاة. فإن الملأ هم أشرف القوم وسادتهم ومُترَفُوهم الذين يمثلون القيادة والرياسة وهم بالنسبة للإعلام الإسلامى الخارجى يتمثلون أيضاً فى الملوك والأمراء والحكام وعُلَية القوم أو العظماء، وهم عادة الذين كانوا يقاومون الرسل كبراً وحباً فى الرياسة والجاه والجهالة⁽⁸⁷⁾. ولكن منهج الدعوة والإعلام الإسلامى كان كفيلاً بالتعامل مع هؤلاء وغيرهم، بضوابطه ومعاييره الخاصة.

وكان قراء القرآن الكريم هم طليعة الإعلام الإسلامى، وظل الاتصال الشفهى مهيمناً على الإعلام الإسلامى منذ عصر الرسول ﷺ حتى العصور الحديثة، بل كانت تنظيمات الدعوة تلزم الولاة العباسيين بالمشاركة فى النشاط الإعلامى. ثم اهتم الفاطميون بتنظيمات الإعلام، حتى كانوا أول من أقاموا للإعلام مناصب رسمية فى دولتهم - داعى الدعاة -، وهو منصب يناظر وزير الإعلام أو الثقافة فى العصور الحديثة⁽⁸⁸⁾.

وقد اهتم الرسول ﷺ باستخدام الإعلام كوسيلة للحرب النفسية لإحداث التفرقة بين صفوف الأعداء. وهى المقصودة بقوله ﷺ لنعيم بن مسعود الأشجعى عندما جاءه معلناً إسلامه : (إِنَّمَا أَنْتَ وَاحِدٌ مِنْ غُطْفَانٍ، فَلَوْ خَرَجْتَ فَخَذَلْتُ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ ؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُذْعَةٌ). والتخذيل هو الاسم الذى أطلقه الرسول ﷺ على الحرب النفسية، وبث روح التفرقة والهزيمة بين الأعداء، وهذا ما تمكن من تحقيقه ابن مسعود فى التحالف الذى كان قائماً بين ثلاث قبائل كانت متحالفة ضد النبى ﷺ، فتمزق الحلف عن طريق التخذيل والحرب النفسية. وكان ﷺ يعتبر الإعلام عامة والشعر خاصة من أهم وسائل

التخذيّل أو الحرب النفسية؛ فهي ضرورة لمساندة القوات العسكرية وللفتّ من عضدّ العدو وتمزيق صفوفه⁽⁸⁹⁾ : ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾⁽⁹⁰⁾ وبمجرد أن اشتبكت السيوف ودارت رحى الحرب بين المسلمين والمشرّكين أخذ الشعراء من الجانبين يَسْلُونُ ألسنتَهُمْ ، وكان من أبرز شعراء النّبي والإسلام حسان بن ثابت وكعب بن زهير، ولعب الشعراء المسلمون دوراً كبيراً في أعظم المواقف التي واجهتها الدولة الإسلامية في حروب الفتوح ومواجهة حركات المرتدين وفي محنة الفتنة الكبرى .

ويستطيع الإعلام العصري أن يساعد على توثيق صلات البلاد بجماعاتها المتباعدة وثقافات الفرعية المتباينة، وأفرادها وجماعاتها المنطوية على نفسها، ذلك إذا أحسن استخدامه⁽⁹¹⁾ . وأصبح الإعلام في حد ذاته يؤدي وظيفة من أخطر الوظائف في العصر الحديث، والخطأ فيه أشدّ خطورة من نظيره في مجالات كالطب والتعليم وغيرها؛ فالخطأ في الإعلام قد يتسبب في إفساد العلاقات بين الأفراد، وتعرض الهيئات والجماعات لطائفة من الخسائر التي قد لا يمكن تعويضها، بل منها نشوب الحروب بين دول العالم⁽⁹²⁾ .

وغالباً ما تكون الدعاية الدولية أو الإعلام الدولي ضمن وسائل تنفيذ السياسات الخارجية للدول وتؤثر وتتأثر بالوسائل الأخرى. والدعاية الدولية مهما بلغت من قوة فهي تُعدُّ انعكاساً للأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية القائمة، بالإضافة إلى تفاعلها مع هذه الأوضاع وتأثيرها فيها وتأثرها بها. بل أصبح من أهم وظائف الإعلام الدولي الإسهام في إدارة الصراع الدولي، حيث ينقل هذا الإعلام على المستوى العالمي عناصر القوة التي يتمتع بها طرف في الصراع ويصيفها في منطق إعلامي مناسب. وهكذا ينقل الإعلام الدولي للعالم طريقة إدارة الصراع من جانب الطرف المعنى في مواجهة الطرف الآخر، وكلما كانت هذه الإدارة قوية كلما ساعد ذلك الإعلام الدولي؛ لأنه يعكس هذه القوة. ويدعم ذلك إذا تمتع الإعلام الدولي بالقوة في حد ذاته⁽⁹³⁾ .

وكل دولة من الدول لها سياسة للاتصال الخارجي أو ما يسمى بالإعلام الخارجي. والإعلام الخارجي لكل دولة يعكس أو يقدم صورة مشرفة لها في الخارج، سواء من أجل مقاومة إعلام مضاد أم لمجرد تقديم الصورة الحقيقية لها؛ فنحن في مصر - على سبيل المثال - كان من إعلامنا الخارجي الإعلام الموجه إلى الإعلام الإسرائيلي وكان الغرض منه - أولاً - دحض مزاعم إسرائيل حول القضية الفلسطينية ثم شرح القضية من جذورها .

ولقد أصبح لوسائل الاتصال الحديثة دور قوى وفعال بقطع النظر عن الأنظمة السياسية والتفاوت الاقتصادي، وبعض الدول بدأت تعيد التفكير قبل اتخاذ قرارات خاصة بالسياسة الخارجية؛ خوفاً من تأثير وسائل الاتصال⁽⁹⁴⁾.

كما أصبح للإعلام دور فعال فى دعم وتنشيط أوجه التعاون المختلفة بين الدول فى مجال العلاقات الثقافية والاقتصادية، أصبح له دور فى تحقيق التحرر من التبعية السلوكية والنمطية التى فرضها الاستعمار طويلاً على شعوب العالم، خاصة وقد بات التحرر من قبضة التبعية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية مطلباً أساسياً، رفعتة الشعوب والقيادات كخطوة أساسية لتحقيق الاستقلال السياسى والوطنى بشكله المتكامل. والمتتبع للجهود الإعلامية للجامعة العربية - على سبيل المثال - لدعم العلاقات العربية الأفريقية فى المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية⁽⁹⁵⁾، وللجهود الإعلامية للدول منفردة فى هذا الإطار أيضاً، يلمس مدى إدراك صناع القرار حالياً لدور الإعلام فى تنفيذ برامج السياسة الخارجية لدولة ما .

ثانياً - الأنشطة الثقافية :

لاشك أن قيام علاقات ثقافية متبادلة بين الدولة الإسلامية وغيرها يوجد نوعاً من التفاهم المشترك بين الشعوب، ويساعد على تكوين صور حقيقية لدى كل من الطرفين عن الآخر، تساعد فى تنفيذ برامج الحكومة على النطاق الدولى إن كانت تتبنى قضايا معينة أو لها مواقف بصدد أزمات أو مشكلات على الساحة الدولية. والعلاقات الثقافية تتسع لتشمل العديد من المعارف والفنون والآداب التى من خلال تقديمها يمكن التعبير عن مواقف معينة أو إيجاد مناخ مناسب للاتصال وتقوية العلاقات أو دعمها .

وتاريخ الدولة الإسلامية يشهد بأنها قدمت آدابها وفنونها وصور حضارتها للعالم حتى تأثر بها وتفاعل معها، وأسهمت فى خلق مناخ طيب وصورة حسنة للإسلام ودولته فى أذهان الشعوب التى تعرفت على الآداب والفنون وصور الحضارة الإسلامية.

لقد تألق الفن الإسلامى فى مواطن فسيحة تضم الأندلس وشمال أفريقيا وغرب آسيا حتى أقاصى الهند كما اتجه إلى شرق أوربا⁽⁹⁶⁾. ولقد بلغ من شدة تفاعل المسلمين مع غيرهم فى المجالات الثقافية أن قيل - مثلاً -: إن الأشكال والأساليب الفنية التى استخدمت فى العمارة الإسلامية أتت كلها من ثقافات غير إسلامية باللغة⁽⁹⁷⁾، وحتى قيل : إذا أردنا أن نعرف الأسس التى قام عليها الفن الإسلامى اتجهت

أنظارنا إلى مصادر ثلاثة هي الفنون المسيحية الشرقية والفن الساساني في إيران والعراق والفن القبطي في مصر⁽⁹⁸⁾. يبين هذا مدى تفاعل الفن الإسلامي مع الفنون الأخرى ودوائر وجوده أو انتشاره داخل العالم الإسلامي وخارجه .

يقول ريتشارد اتنجهاوزن⁽⁹⁹⁾: «خلال ما يزيد على ألف وثلاثمائة عام، كان بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي مواجهة شبه دائمة، وكانت العلاقات بينهما تتسم بالتفاعل النشط، وفي كثير من الأحيان بالتوتر، لكن بالرغم من موقف الإنكار العنيف الذي كان الغرب يقفه من الدين الإسلامي ومن نبيه، وهو موقف مازال الغرب يحتفظ به في الواقع إلى اليوم، وبالرغم من الحرب الفعلية التي كانت مستمرة بينهما والتي بلغت أوجها في الحروب الصليبية وفي فتوح الأتراك العثمانيين في أوربا، فإن الغرب لم يحمل قط غير شعور الإعجاب بفنون البلاد الإسلامية، ولم يقتصر الأمر على مجرد قبول تلك الفنون بطريق سلبية، بل إن إعجاب الغرب بالفنون الإسلامية تجلى في إدخال ماتيسر له منها إلى أكثر منشآته احتراماً وإجلالاً، سواء كانت تلك المنشآت دينية أو دنيوية».

ثم ذكر بعض الآثار والأدلة التي تشير إلى تواجد الفنون الإسلامية في بقاع مختلفة بالعالم، لدرجة وجود شخوص عربية وإسلامية بعمائمها وملابسها التقليدية في عدد لا يحصى من لوحات عصور النهضة الفنية في الغرب⁽¹⁰⁰⁾، ولدرجة أن أقدم قطعة نسيج حريرية ذات تصاوير وعليها اسم يمكن تحديد تاريخه واستخدمت في شيء يتصل بالكنيسة أصلها من شرق إيران وصنعت قبل عام 350 هـ.⁽¹⁰¹⁾ وخلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ظهر تطور جديد، وهو أن النسيج الإسلامي أصبح نموذجاً ينسج على منواله النساجون الأوربيون بتصرف محدود.⁽¹⁰²⁾ وفي أوائل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي قام سفراء البندقية بناء على اقتراح من هنري الثامن ملك إنجلترا بتقديم سبعة بسط ملوكية من مصر، ثم ستين أخرى من هذا النوع المفضل في ذلك العصر إلى كبير وزرائه، وكانت هذه الهدية من الأمثلة الأولى لهذا النوع من الهدايا الدبلوماسية⁽¹⁰³⁾. وفي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كان الخزف الأندلسي ذو البريق المعدني موضع تقدير كبير في كل من أوربا والشرق الإسلامي⁽¹⁰⁴⁾. وانتقل الزجاج والأنية الزجاجية الإسلامية إلى السويد وجنوب روسيا والصين، وكانت تلك الأواني في العادة

تستقر أخيراً في الكاتدرائيات والكنائس والأديرة⁽¹⁰⁵⁾. وظل لهذا التواجد الفني الإسلامي أثره الملموس في أوروبا، حتى عندما ضعفت الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر وأصبح الأتراك أقل مهابة، ظلت صورة الشرق الإسلامي كقوة سياسية حقيقية حاضرة في الأذهان الغربية مدة طويلة⁽¹⁰⁶⁾.

وقد استُخدم القصص الإسلامية كأداة تعبير إعلامي سياسي، بل كان من أهم العوامل النفسية التي نهضت بمهمة الإعلام الإسلامي في شتى مراحله. وقد كان القصص القرآني هو الوسيلة العظمى والطريقة المثلى للدعوة الإسلامية، وقد وظف القرآن الكريم أساليب الجدل والحوار والتبشير والتحذير وغيرها في قصصه المختلفة، وظل القصص - كالشعر - من أدوات الإعلام الإسلامي المؤثرة⁽¹⁰⁷⁾.

وقد ميز فرانز روزنتال بين ثلاث حقبة متوالية في تاريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، وفي حديثه عن الحقبة الثالثة منها - على سبيل المثال - والتي بدأت مع ظهور الترجمات العلمية الأولى عن الأدب العربي، والتي تمت في هولندا أول القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي وتمتد إلى حاضرتنا هذا، وما شهدته هذه الحقبة من تفاعل وتأثير متبادل بين أدب العالم الإسلامي والحركة الفكرية في أوروبا، قال أخيراً: وبكلمة موجزة فإن هذه التأثيرات الإسلامية وسَّعت النظرة الغربية إلى العالم وجعلتها أكثر تنوعاً. وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربي بدرجة لا حد لها، وكان أحد العوامل التي مكنت هذا الأدب من التطور في اتجاه نوع من العالمية كان جديداً في تاريخ الإنسانية⁽¹⁰⁸⁾.

وقد قدم أو. رايت أكثر من دليل يبين تأثير الموسيقى عند المسلمين على موسيقى كثير من شعوب العالم في أوروبا وأفريقيا وآسيا، وما يدعم النظرية القائلة بأن نظام الموسيقى الموزونة (المازورة) نفسه أخذه الغرب عن العرب، وأن أوروبا لم يصبح لها نظام موسيقى للإيقاعات إلا بعد أن وقفت على الإيقاعات التي وجدت من قبل في فن الموسيقى عند المسلمين⁽¹⁰⁹⁾.

وقد أدت سيادة الإسلام في غرب أفريقيا وانتشاره الواسع على طول الساحل الشرقي للقارة، إلى دخول عدد من الآلات في الموسيقى عند الأفريقيين، بل إن الآلات الموسيقية الإسلامية الأصل توغلت إلى مسافات أبعد من المناطق التي توطد فيها الإسلام⁽¹¹⁰⁾، ولقد كانت أيضاً مجموعة الآلات في موسيقى المسلمين العسكرية شيئاً جديداً على الصليبيين بدورهم⁽¹¹¹⁾. وحملت مفردات اللغة الإسبانية اقتباسات لفظية أخرى خارج النطاق المحض لأسماء الآلات الموسيقية، وقد امتد هذا الأثر إلى بقية أوروبا⁽¹¹²⁾.

وفيما يلي بعض النماذج من الأسماء الإسبانية للآلات الموسيقية، والتي تمدنا بأدلة قاطعة على أثر العرب في الموسيقى الإسبانية والذي امتد إلى بقية أوروبا :

الاسم العربي	الاسم الإسباني
- الدف	- Adufe
- النقارة	- Naker
- آلة إيقاع (الطبلية)	- Atabal
- الشبابة (آلة نفخ شبيهة بالناي)	- Exabeba
- البوق	- Albogon
- النفير	- Anafil
- الربابة	- Rebec
- العود	- Ilaut

وقد سارت مراكز الثقافة العربية والإسلامية من حيث نشأتها وتطورها خطوة خطوة مع اتساع الدولة الإسلامية وتطورها، وتفاعلت هذه المراكز مع حضارات وثقافات البلاد التي احتواها إطار الدولة الإسلامية، ثم تميزت تلك المراكز - في مرحلة تالية - بالإنتاج الغزير في علوم الإدارة وتقويم البلاد، إلى جانب الدراسات الدينية، وأصبحت حلقة اتصال بين المشرق العربي والمغرب العربي الفتى، بل إن مراكز الثقافة الإسلامية، في المغرب أصبحت تسهم في تغذية نظيراتها في أفريقية والأندلس ومصر والعراق، واستطاعت تلك المراكز أن تتصدى للتيارات السياسية المتعاقبة التي شهدتها تلك البلاد، وأن تواصل نشر العلم والمعرفة⁽¹¹³⁾.

وإذا كانت المراكز الإسلامية في مهد الإسلام قد أسهمت بفاعلية في نشر الإسلام واتساع رقعة دولته، فهي على الأقل اليوم تواصل رسالتها في بث الثقافة الإسلامية، ومحاورة غير المسلمين خارج دولة الإسلام، والدفاع عن الفكر والحضارة الإسلامية، وانتشار المراكز الإسلامية العديدة حالياً في قارات العالم المختلفة والجهود التي تبذل لدعمها شاهد على دور هذه المراكز في إيجاد التفاهم المتواصل والحوار البناء بين المسلمين - دولاً وشعوباً - وغيرهم⁽¹¹⁴⁾.

ويوجد خارج العالم الإسلامى حالياً أحد عشر مركزاً إسلامياً، واحد بدار السلام بتنزانيا - أفريقيا، وخمسة فى أوربا (باريس، لندن، جنيف، الفاتيكان، وبلجيكا) وثلاثة فى أمريكا الشمالية (واشنطن، نيويورك، كندا) وواحد فى أمريكا الجنوبية (البرازيل) وواحد فى استراليا⁽¹¹⁵⁾، وكثير غير هذه يظهر تباعاً .

وإلى جانب ماسبق ذكره عن تأثير العالم - خاصة أوربا - بفكر المسلمين وأدبهم وثقافتهم وفنونهم، على أثر وجود العلاقات الثقافية بين المسلمين وغيرهم، فقد كانت أيضاً الآثار أو التأثيرات الحضارية العلمية والتطبيقية الأخرى أكثر وضوحاً فى مجالات الطب والهندسة والعلوم والرياضيات وغيرها، مما أفاض الباحثون فى عرضه كثيراً والذى يقدم الدليل تلو الآخر على أن المسلمين تأثروا وأثروا فى غيرهم بالتفاعل المستمر، وقيام العلاقات الثقافية والحضارية بينهم وبين غيرهم.

وإن أنكر بعض حاقدى الغرب ذلك، فمرجعه إلى التعصب الموروث لدى أغلبية المسيحيين الغربيين ضد الإسلام ، إلى جانب أن هناك بعض العقول يبدو لها دائماً أنه من المهانة أن تدين أوربا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش⁽¹¹⁶⁾ .

وليس الهدف من ذكر هذه المعلومات فى بحث كهذا هو المنّ على أوربا وغيرها بأن الإسلام ذو فضل أو يد عليا عليها، وإنما يأتى ذكرها هنا لإبراز ثمرة التفاعل الحضارى والعلاقات الثقافية ونتائجها، ودور ذلك فى إيجاد تفاهم ورؤى متقاربة، تخدم العمل فى العلاقات الدولية وتنفيذ برامج السياسة الخارجية فى مجالاتها المختلفة .

وليس يعنى ذكرها أيضاً أن العالم الخارجى هو المتأثر أو المستفيد فقط من الثقافة والحضارة الإسلامية، فلم يقل مسلم بذلك، وإنما المسلمون موضوعيون ويذكرون دائماً أنهم أفادوا أيضاً من الثقافة والحضارة الغربية بانفتاحهم عليها وإيفاد بعوثهم للنقل عنها فى إطار ما يتقبله الإسلام ولا يناقض أصوله⁽¹¹⁷⁾ .

ولا يخفى على أحد دعوة الإسلام إلى الانفتاح الثقافى والتعليمى ودعوته العالمية فى هذا الشأن وحث رسوله الكريم المسلمين على أن يطلبوا العلم ولو فى الصين، وتأكيدہ ﷺ على أن الحكمة هى ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، وبيانه ﷺ فى حديثه الشريف أن الملائكة تبسط أجنحتها لطالب العلم، وأن من غادر أهله فى طلب العلم فهو سائر فى سبيل الله .

ليس هذا فقط .

وليست دعوة الإسلام ورسوله الكريم هذه فى اتجاه واحد بهدف أن يحث المسلمين على الخروج والسفر إلى الأفاق المختلفة لتحصيل العلم أين كان، ولكن أيضاً تأتي دعوة الإسلام أهله أو تكليفهم فى اتجاه مكمل للاتجاه الأول، متفاعل بنّاء منفتح على الآخرين، مستهدفاً خدمة الدعوة وسياسة الدولة الإسلامية الخارجية وأهدافها .

ويأتى - مؤكداً هذا المعنى - حديث رسول الله ﷺ : (بلغوا عني ولو آية .. الحديث) وحديثه الشريف أيضاً : (قَوَّ الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النُّعَم). متفق عليه⁽¹¹⁸⁾ .

والذى يدرس العقائد المختلفة فى علم مقارنة الأديان يدرك التأثير الواسع الذى أحدثه الإسلام فى عقائد الجماعات التى اتصل بها. وفيما يلى نثبت بعض صور من هذا التأثير⁽¹¹⁹⁾ .

- كان تأثير الإسلام على عقيدة المسيحيين واسعاً، فمنذ عهد بولس اتجه المسيحيون إلى القول بالتثليث، ولما جاء الإسلام وقال بالوحدانية المطلقة ودلل على هذه الوحدانية بأدلة حاسمة عقلية ونقلية، لجأ المسيحيون إلى تحرير عقيدتهم بما يقرب من الإسلام، فقالوا بوحدة فى تثليث. ووجدت من بين النصارى طائفة أنكرت ألوهية المسيح عليه السلام، وفى مصر طائفة كبيرة من المسيحيين المثقفين تستنكر ألوهية المسيح وترفض القول بالتثليث.

وظهرت آثار مشابهة للإسلام فى جنوب فرنسا، فى بعض الفترات، حيث امتد الإسلام إلى هناك - من إسبانيا - .

بل لقد حملت البروتستانتية بعض آثار الإسلام وأفكاره ومبادئه.

- وكان فى الهندوكية آلهة لا يحصى عددها، وعندما اختلط الهنود بالمسلمين ظهر تأثير الإسلام فى عقيدتهم، فبدأ الهنود يتكلمون عن رب الأرباب وإله الآلهة، بل إن من قادة الفكر من الهنود الذين ظهروا فى العصر الإسلامى من صرحوا بأن الإله واحد، ودعوا إلى عبادته دون سواه.

- أضف إلى ذلك أن مؤسس أو منشئ ديانة السيخ (بابا نانك) كان قد تربى بين المسلمين وتعلم على كثيرين من علمائهم، فلما أنشأ ديانته ظهرت بها تعاليم الإسلام: كالتوحيد والمساواة بين البشر واجتناب عبادة الأصنام.

وعلى جانب آخر، فقد كانت الثقافة الأجنبية تجد أرضاً رحبة تنشط عليها في العالم الإسلامي وبتشجيع من الخلفاء أنفسهم⁽¹²⁰⁾ :

فحينما جاء الإسلام سمح لمدرسة الإسكندرية - ونظيراتها في قيسارية وانطاكية ونصيبين وبلاد فارس - بممارسة دراساتها سواء كانت في اللاهوت أم في العلوم الطبيعية، واستمر ذلك في أيام الأمويين، وعندما جاءت الخلافة العباسية فتحت مزيداً من الأبواب للثقافة الخارجية، بل كان الخلفاء المسلمون يحرصون على استدعاء مشاهير العلماء والمفكرين من الخارج، للانتفاع بعلمهم في العالم الإسلامي.

وفي إطار التفاعل الثقافي مع العالم الخارجى كانت الوفود والبعثات الأجنبية أيضاً تأتي للتعلم في المدارس الإسلامية.

فقد تطلع ملوك أوربا إلى معاهد العلم بالأندلس - على سبيل المثال - وحرصوا على أن ينالوا منها لذويهم قسطاً من الفكر والمعرفة، حتى طلب ملك إنجلترا جورج الثاني إلى الخليفة الأندلسي هشام الثالث يستأذنه في قبول مجموعة مختارة من الطلاب الانجليز ليلتحقوا بالمعاهد الإسلامية بقرطبة، وقد وافق الخليفة، وجاء الوفد تحت إشراف إحدى أميرات البيت المالكي، هي ابنة شقيقة الملك.

ولم يقنع الغربيون بالوفود يرسلونها إلى المعاهد الإسلامية، بل حاولوا فتح المدارس والمعاهد، وأن يجلبوا لها مدرسين من بلاد الإسلام، كما فعل الملك الفونس العاشر في طليطلة وكما فعل رئيس الأساقفة في شمال إسبانيا، ومثل ذلك حدث أيضاً في صقلية.

ونرى أنه من المهم أن نثبت هنا أيضاً أن الأوروبيين في العصور الوسطى كانوا يتحاكمون إلى قوانين مصدرها العرف، وكانت متغيرة حسب هوى سادة الإقطاع، وعندما أرادت بعض الدول الأوربية وضع قانون عام اقتبست كثيراً من مذهب الإمام مالك الذي كان موجوداً في إسبانيا الإسلامية، وظل الاقتباس حتى العصر الحديث، وتأثر القانون الذي وضعه نابليون متأثراً واضحاً بالتشريع الإسلامي، بل لقد وجد في قانون نابليون تشابه كبير بالقانون الإسلامي، وذلك - مثلاً - في نظام العقود والملكية والإيجار⁽¹²¹⁾.

ثالثاً - الأنشطة الاقتصادية :

إذا كان من الممكن الحديث عن نظام اقتصادى إسلامى أو سياسات اقتصادية إسلامية، بينما ليس ممكناً الحديث عن علم الاقتصاد عند المسلمين أو عند غيرهم؛ وذلك لحدثة هذا العلم وحياد الظاهرة الاقتصادية التى تشكل أساس هذا العلم، فغاية ما يمكن قوله : إننا يمكن أن نجد بعض الأفكار الاقتصادية عند أحد كتّاب المسلمين كابن خلدون، ولكنها أفكار متناثرة وردت بمناسبة حالات تطبيقية معينة، بحيث إذا جمعت لا يمكنها أن تشكل علماً للاقتصاد بالمعنى المفهوم لهذا التعبير⁽¹²²⁾، ولذا ينبغى ألا ندرس مجموع الاقتصاد الإسلامى باعتباره كياناً منفصلاً عن سائر الكيانات الاجتماعية والسياسية الأخرى فى الفكر الإسلامى، بل يجب أن ندرك بوعى وبصيرة أنواع العلاقات والتأثيرات القائمة بين هذه الأجزاء؛ باعتبارها تشكل فى النهاية وحدة واحدة⁽¹²³⁾.

وإذا كان متاح من الأفكار أو المعلومات لا يعين الباحث على بيان قواعد معينة للنشاط الاقتصادى الإسلامى الخارجى، وذلك لتركيز غالب الدراسات الاقتصادية الإسلامية - حتى الآن - على النشاط الاقتصادى الإسلامى داخل المجتمع⁽¹²⁴⁾، فمما لا شك فيه أن بناء اقتصاد إسلامى قوى على مستوى الوحدات الإسلامية أو على مستوى العالم الإسلامى كله يعد من أبرز عوامل قوة العالم الإسلامى السياسية، الأمر الذى يُمكن هذا العالم من مواجهة تحديات العصر المختلفة والصمود بقوة وحكمة فى وجه الأعداء المتربصين به، خاصة وقد أصبحت المصالح السياسية تعد من أهم الأسباب التى تحمل على إتمام التكامل الاقتصادى ودوامه، وأنه لا يمكن أن نرى أو نجد توحيداً سياسياً للبلاد الإسلامية دون أن يتم توحيدها اقتصادياً فى الوقت نفسه؛ فكل من الوحدتين الاقتصادية والسياسية ضرورية لوجود الأخرى، وإن خدمة الاقتصاد الإسلامى هى فى الوقت نفسه خدمة للسياسة الإسلامية. ومما لا نغفل عنه فى هذا الإطار ما يحيط حالياً بالبلاد الإسلامية من أخطار جسيمة، نظراً إلى أطماع الشرق والغرب فى السيطرة على هذه البلاد لمواردها - خاصة البترولية -، بالإضافة إلى خطر وجود إسرائيل داخل الوطن الإسلامى. فهذه الأخطار جميعاً يصعب صدها على الساحة الدولية إذا ما بقى اقتصاد الدول الإسلامية مفككاً كما هى عليه الحال الآن، بالإضافة إلى تفككها السياسى⁽¹²⁵⁾.

وإذا كان من تعاليم آدم سميث أن على الحكومة أن توفر وسائل الدفاع - وهى من أهم أدوات تنفيذ السياسة الخارجية - على أن تأخذ فى الاعتبار الاقتصاد الذى تستند إليه القوات المسلحة، وألاً تُغفل كذلك القوة العسكرية ذاتها، والصناعة؛ فهى الأساس الجوهرى الذى تقوم عليه القوة العسكرية، فإن الإسلام قبل ذلك بقرون عديدة جعل الدفاع فى قمة الإيمان وأمر به والإعداد له بكل عناصر قوة الأمة : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... ﴾ ⁽¹²⁶⁾ ، وفى مقدمتها القوة الحربية والاقتصادية، بل إن الله يُدخل ثلاثة نَفَرٍ الجنة بسهم واحد : صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَّ وَمُنْبِلَهُ، كما ورد فى الحديث الشريف ⁽¹²⁷⁾ .

إن النشاط الاقتصادى البناء داخلياً وخارجياً يعد أحد ركائز العمل الإسلامى العام ملتزماً بالإطار القيمى والأخلاقي الذى رسمه الإسلام لأهله ولدولته، وإذا ما استعرضنا ملامح التحركات والأنشطة الاقتصادية فى الفلسفات غير الإسلاميه، نجد النظام الإسلامى يتعفف عن الاتصاف بواحدة من هذه الملامح الشيطانية الهدامة .

فبينما تنادى بروتوكولات حكماء صهيون بامتصاص الثروات وإنشاء الاحتكارات الضخمة والتخريض على إدمان الخمر والفساد الخلقى للسيطرة الاقتصادية، نجد أن النظام الرأسمالى قد نفذ غالب هذه التكتيكات وتركزت الثروة فى أيدي القلة عن طريق إنشاء الاحتكارات حتى أصبحت القوة السياسية تسير فى ركاب الثروة وأصبح السياسيون يقرون السلام أو يعلنون الحرب وفقاً لرغبات رأس المال فهو القائد الفعلى للقوة السياسية. وبينما الأمر هكذا فى الغرب نجد الشيوعية فى الشرق تعنى - فى حقيقتها - تسلط مجموعة من محترفى القرصنة والإرهاب على أموال الأمة بدعوى نصرة الطبقة المسحوقة، وليست أيضاً الرأسمالية عن ذلك ببعيدة. فهل مع المقارنة بين هذه الأوضاع وبين سياسات الاقتصاد فى الإسلام، نجد شيئاً من هذا دعا إليه الإسلام على النطاق الداخلى أو الخارجى ⁽¹²⁸⁾ .

ومما يؤسف له أن هذه السياسات الفاسدة التى وضعها الصهيونية، قد تمكنوا بها من السيطرة والسطو على موارد وثروات معظم شعوب العالم الإسلامى وأصبح العالم الإسلامى حالياً يعانى من التخلف والحرمان، ليس لأنه يفتقد أدوات المواجهة، ولكن لأنه لم يُحسّن توظيف أدواته الاقتصادية، وتخاذل وأسلم قياده لفلسفات الغرب حيناً والشرق أحياناً، والمطالع ما يُنشر عن الحرمان والتخلف ومظاهرهما فى ديار

المسلمين على الأقل في العصر الحاضر يدرك مدى خطورة المواجهة الاقتصادية بين العالم الإسلامي وغيره من القوى المتربصة به⁽¹²⁹⁾، الأمر الذي يؤثر بدرجة كبيرة على وزن السياسات الخارجية لدول العالم الإسلامي ودورها، ويملى عليها أن تضع في حساباتها الخارجية اهتماماً كبيراً بالتواجد على الساحة الدولية والاهتمام بالقوة الاقتصادية الفعالة.

وفي السطور التالية إشارة يسيرة إلى بعض مآثره السياسية الخارجية للدولة الإسلامية من صور المعاملات الاقتصادية كأدوات فاعلة في تنفيذ هذه السياسة. وقد تباينت هذه الصور وتنوعت من عون اقتصادي إلى تجارة خارجية إلى توظيف... الخ كما تبين هذه السطور⁽¹³⁰⁾:

روى أن الرسول ﷺ لما عرف أن قريشاً بمكة تعاني من ضائقة اقتصادية عقب صلح الحديبية أرسل إلى أبي سفيان زعيم مكة خمسمائة دينار، يسهم بها في تخفيف هذه الضائقة.

وكان ثمامة بن أثال زعيم منطقة اليمامة الخصبة قد دخل الإسلام وجاء إلى مكة معتمراً وطاف بالبيت العتيق وأعرض عن الأصنام، فلما علمت قريش بذلك تهكمت به ورشقته بعبارات جارحة، فأقسم ألا يبيع قومه لقريش ما كانوا قد تعودوا بيعه لهم من القمح. وكان توقف بيع القمح لمكة معناه مجاعة قاسية، فأرسل المكيون إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يطلب من ثمامة أن يستأنف قومه بيع القمح لأهل مكة، فاستجاب لهم الرسول ﷺ ورغب إلى ثمامة أن يفعل، ففعل.

وقد فعل ﷺ كل ذلك مع أنه لم يكن قد نسي ما فعلته قريش معه ومع أهله وأتباعه، حينما دفعتهم إلى الشَّعْب، وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً واجتماعياً، قبل أن يهاجر إلى المدينة.

كذلك يذكر أن من المسلمين - عقب الهجرة - من عمل في مزارع اليهود، كما أن المسلمين سمحوا لغير المسلمين أن يزرعوا أرض الخراج، التي كانت مملوكة لشاهات فارس وسادة البلاد المفتوحة وصارت عقب الفتح ملكاً للمسلمين.

وقد اشتهر أن الرسول ﷺ جعل فدية بعض أسرى بدر أن يعلموا أطفال المسلمين القراءة والكتابة، وإن لم يكن هذا في شكل توظيف مباشر، فقد أخذ في عهد عمر بن الخطاب شكلاً وظيفياً واضحاً حيث رُوي أنه استعمل بعض أسارى قيسارية ككتبة له ووظفهم في الدولة.

واتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانياً، وفي عهد الدولة الأموية توسع الخلفاء الأمويون في هذا النطاق : فاتخذ معاوية طبيباً نصرانياً، وأصبح يوحنا الدمشقي مستشاراً لعبد الملك بن مروان.

وقد نقلت كتب التاريخ والحضارة الإسلامية كثيراً من صور التبادل التجارى بين الدولة الإسلامية وغيرها في مختلف العصور، ولم يكن يُحظر إلا التعامل في السلع التي حرمتها الشريعة الإسلامية كالخمر، وكذلك كان يُحظر التعامل بالربا مع غير المسلمين كما هو محظور فيما بينهم .

وكذلك عرفت الدولة الإسلامية إنشاء وتملك أكبر الأساطيل التجارية لتسهيل وتنشيط الحركة التجارية مع العالم الخارجى.

أما من ناحية العملات الأجنبية في العالم الإسلامي، فقد كان الدرهم الفارسي والدينار الرومي مستعملين في العالم الإسلامي قبل الإسلام، وعندما جاء الإسلام استمر ذلك ولم يرَ المسلمون بأساً في ذلك. ثم ظهرت النقود الإسلامية على النمط البيزنطى ابتداء من عهد عمر بن الخطاب، وكانت هذه النقود تسير في فلك النقود البيزنطية شكلاً ووزناً حتى عهد عبد الملك بن مروان، ولم تكن هناك سوى إضافة إشارة إسلامية إلى الدينار البيزنطى، ثم بدأ في عهد عبد الملك بن مروان سك النقود الإسلامية.

وهناك كذلك من صور المعاملات ما له بعد اجتماعى في العلاقات الدولية - كقبول الهدايا بين المسلمين وغيرهم - : فقد قبل ﷺ هدية المقوقس - عظيم القبط في مصر - ، وسمح لأسماء بنت أبى بكر أن تقبل هدية من أمها التي جاءت من أرض الكفر، وقبل ﷺ دعوة امرأة يهودية إلى الطعام - عقب الاتفاق مع يهود خيبر - ثم اتضح أن المرأة خائنة، دست السم له ﷺ في الطعام - لحم شاة - ، بل لقد استدان ﷺ حتى إنه توفى ودرعه مرهونة عند يهودى نظير مال اشترى به ﷺ طعاماً لأهله، وكذلك اقترض - في موقف آخر - مالاً من يهودى أيضاً.

وقد ثبت - كذلك - أنه ﷺ كان يعود مرضى أهل الكتاب، ويشيع جنازتهم.

* * * *

* * *

* *

*

مراجع الفصل الثاني

- 1 - مستشار عمر شريف، نظام الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، 1983، ص 17.
- 2 - د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص 37.
- 3 - أبو الحجاج حافظ، من رسائل النبى ﷺ، القاهرة، دار التحرير للطبع والنشر، كتاب الجمهورية الدينى، د.ت.، ص 9.
- 4 - المرجع السابق، صفحات : 24، 29، 34، 39، 48، 49.
- 5 - التوبة : 1.
- 6 - محمود نافع، عالم الدبلوماسية وحصانة الدبلوماسيين، عرض لرسالة دكتوراه حول الحصانات الدبلوماسية، مقدمة من الطالب خير الدين عبد اللطيف إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1988، نشر العرض بجريدة الجمهورية فى 7 / 7 / 1988، ص 7.
- 7 - الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 72.
- 8 - د. رؤوف شلبى، مرجع سابق، ص ص 49 - 50.
- 9 - المرجع السابق، ص ص 63 - 64.
- 10 - المرجع السابق، ص 22.
- 11 - د. محمود عبد المولى، مرجع سابق، ص 93.
- 12 - السفير محمد التابعى، السفارات فى الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولى، 1988، ص ص 79 - 155.
- 13 - عبد الحليم الجندى، توحيد الأمة بتطوير شرائعها، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1964، ص 109.
- 14 - د. عبد الودود شلبى، الإسلام وخرافة السيف، القاهرة، مؤسسة الخليج العربى، 1987، ص 69.

- 15 - د. جمال الدين محمود، مرجع سابق، ص 48 وما بعدها.
- 16 - النص الكامل للصحيفة بالملاحق فى نهاية الكتاب.
- 17 - د. عز الدين فودة، مرجع سابق، ص 16 وص ص 49 - 50.
- 18 - د. رؤوف شلبى، مرجع سابق، ص ص 5 - 6.
- 19 - المرجع السابق، ص ص 13 - 16.
- 20 - المرجع السابق، ص 9، ص ص 103 - 104. و : آل عمران : 103 ، 105.
- 21 - د. جمال الدين محمود، مرجع سابق، ص 52.
- 22 - د. البوطى، مرجع سابق، ص 238.
- 23 - د. جمال الدين محمود، مرجع سابق، ص 52.
- 24 - الأنفال : 61.
- 25 - التوبة : 1.
- 26 - د. جمال الدين محمود، مرجع سابق، ص 54.
- 27 - د. البوطى، مرجع سابق، ص 255.
- 28 - المرجع السابق، ص 102.
- 29 - د. جمال الدين محمود، مرجع سابق، ص 55.
- 30 - التوبة : 5.
- 31 - الأنفال : 61.
- 32 - د. البوطى، مرجع سابق، ص 238.
- 33 - محمد الغنى حسن، المعاهدات والمهانات فى تاريخ العرب، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص ص 32 - 49.
- 34 - المرجع السابق، ص 7.
- 35 - د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص ص 32 - 34.

- 36 - التوبة : 1 - 4.
- 37 - التوبة : 4.
- 38 - التوبة : 6.
- 39 - التوبة : 5.
- 40 - البقرة : 190.
- و: محمد على الصابوني، مرجع سابق، ج 1، دمشق، مكتبة الغزالي، د.ت، ص 110.
- 41 - د. محمد بهي الدين سالم، مرجع سابق، ص ص 95 - 98.
- 42 - الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 75.
- 43 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، ص 11.
- 44 - المرجع السابق، ص 13.
- 45 - المرجع السابق، ص 16.
- 46 - المرجع السابق، ص ص 74 - 80.
- 47 - كان من نصوص معاهدة الهدنة - حقيقة - أن من يفر من مكة إلى المسلمين يُردُّ إلى مكة، وأن من يفر من المسلمين إلى مكة لا يرد! .
- 48 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، ص ص 50 - 58.
- 49 - المرجع السابق، ص ص 61 - 63.
- 50 - المرجع السابق، ص ص 93 - 100.
- 51 - الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 80.
- 52 - د. محمد بهي الدين سالم، مرجع سابق، ص ص 98 - 100.
- و: د. عبد الودود شلبي، مرجع سابق، ص ص 119 - 131.
- و: د. رؤوف شلبي، مرجع سابق، ص 69.

- 53 - النحل : 94.
- 54 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، صفحات : 17، 67 - 73.
- 55 - البقرة : 282.
- 56 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، ص ص 101 - 107.
- 57 - الإسراء : 34.
- 58 - النحل : 91.
- 59 - الأنفال : 58.
- 60 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، ص 18.
- 61 - المرجع السابق، ص ص 108 - 114.
- 62 - المرجع السابق، ص 19.
- 63 - الأنفال : 61.
- 64 - الحُجُرَات : 9.
- 65 - محمد عبد الغنى حسن، مرجع سابق، ص ص 63 - 100.
- 66 - المرجع السابق، ص 59.
- 67 - المرجع السابق، ص ص 81 - 91.
- 68 - المرجع السابق، ص 122 وما بعدها، وفيه - أيضاً - تفصيل لما يلى ذكره.
- 69 - د. محى الدين عبد الحلیم، الإعلام الإسلامى وتطبيقاته العملية، ط 2، القاهرة، مكتبة الخانجى، 1984، ص ص 5 - 6.
- 70 - د. إبراهيم إمام، الإعلام الإسلامى، القاهرة، الأنجلو، 1980، ص 90.
- 71 - د. محى الدين عبد الحلیم، مرجع سابق، ص ص 148 - 166.
- 72 - الشورى : 48.
- 73 - الرعد : 40.

- 74 - المائدة : 92.
- 75 - النحل : 125.
- 76 - البقرة : 256.
- 77 - الغاشية : 21 ، 22.
- 78 - د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص 11.
- 79 - المرجع السابق، ص 15.
- 80 - المرجع السابق، ص 17.
- 81 - د. محى الدين عبد الحليم، مرجع سابق، ص 193.
- و: د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص 53.
- 82 - د. محى الدين عبد الحليم، مرجع سابق، ص 145.
- 83 - الأحزاب : 45 ، 46.
- 84 - د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص ص 24 - 27.
- 85 - د. حسين فوزى النجار، الإعلام المعاصر، القاهرة، دار المعارف، سلسلة اقرأ، يناير 1984، ص ص 97 - 98.
- 86 - د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص ص 41 - 48.
- 87 - المرجع السابق، ص 57.
- 88 - المرجع السابق، ص ص 62 - 72.
- 89 - المرجع السابق، ص 85.
- 90 - الأنفال : 60.
- 91 - ولبور شرام، أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية، ترجمة محمد فتحى ويحى أبو بكر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 65.

- 92 - عبد اللطيف حمزة، أزمة الضمير الصحفى، عن : د. محى الدين عبد الحليم، مرجع سابق، ص 21.
- 93 - د. محمد على العوينى، الإعلام الدولى بين النظرية والتطبيق، الأنجلو، 1978، ص ص 11 - 13.
- 94 - د. مرسى سعد الدين، الاتصال من أجل الغد، القاهرة، دار المعارف، سلسلة كتابك، 1984، ص ص 15 - 17.
- 95 - مجدى حماد، مؤتمر القمة العربى الأفريقى الأول وتصور مقترح للانتشار الثقافى العربى فى أفريقيا، دراسة منشورة فى كتاب العلاقات العربية الأفريقية - دراسة فى أبعادها المختلفة، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، 1978، ص ص 430 - 438.
- 96 - د. عبد الرحمن زكى، الفن الإسلامى، القاهرة، دار المعارف، سلسلة كتابك، 1984، ص 10.
- 97 - شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقى العمدة، الكويت، المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، القسم الثانى، نوفمبر 1978، ص 25.
- 98 - د. كمال سامح، محاضرات فى العمارة الإسلامية، القاهرة، المعهد العالى للدراسات الإسلامية، 1974، ص 5.
- 99 - شاخت وبوزورث، مرجع سابق، القسم الثانى، ص 93.
- 100 - المرجع السابق، ص 101.
- 101 - المرجع السابق، ص 104.
- 102 - المرجع السابق، ص 107.
- 103 - المرجع السابق، ص 109.
- 104 - المرجع السابق، ص 122.
- 105 - المرجع السابق، ص 123.
- 106 - المرجع السابق، ص 135.

- 107- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص ص 131 - 135.
- 108- شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الثاني، مرجع سابق، ص 189.
- 109- شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الثالث، مرجع سابق، ص ص 234 - 235.
- 110- المرجع السابق، ص 251.
- 111- المرجع السابق، ص 253.
- 112- المرجع السابق، ص 256.
- و: د. سمحة الخولى، القومية فى موسيقى القرن العشرين، الكويت، المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، يونية 1992، ص 23.
- 113- د. إبراهيم أحمد العدوى، تاريخ العالم الإسلامى، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، 1984، ص ص 235 - 243.
- 114- د. أحمد زكى أبو شادى، الإسلام الحى، رابطة الأدب الحديث، 1955، ص ص 75 - 77.
- و: د. عبد الودود شلبى، مرجع سابق، ص ص 161 - 169.
- 115- مصر والعالم الإسلامى، القاهرة، مجلس الشورى، تقرير صادر عام 1985، ص 53.
- 116- د. عبد الحليم محمود، أوربا والإسلام، ط 2، القاهرة، دار المعارف، 1982، ص 154.
- 117- د. محمد كامل الفقى، الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديث، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الرابع، 1982، ص ص 44 - 68.
- 118- ابن شرف النووى، رياض الصالحين، الإسكندرية، دار الدعوة، كتاب العلم، ص ص 337 إلى 340.
- 119- د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، ط 5، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1987، ص ص 77 - 79.

- 120- المرجع السابق، ص ص 81 - 87.
- 121- المرجع السابق، ص 89.
- 122- د. رفعت المحجوب، دراسات اقتصادية إسلامية، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، 1983، ص 3.
- 123- د. أحمد النجار، النظرية الاقتصادية في الإسلام، القاهرة، دار التحرير للطبع والنشر، كتاب الجمهورية الدينى، د.ت، ص 30.
- 124- د. محمد شوقي الفنجري، تطور الدراسات الاقتصادية، القاهرة، مطابع الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية، د.ت، ص ص 20 - 64.
- 125- د. إسماعيل عبد الرحيم شلبى، التكامل الاقتصادى بين الدول الإسلامية، القاهرة، مطابع الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية، 1980، ص ص 54 - 56.
- 126- الأنفال : 60.
- 127- حمزة الجميعى الديموى، الاقتصاد فى الإسلام، القاهرة، دار الأنصار، 1979، ص ص 267 - 268.
- 128- د. عبد الله المصلح، الملكية الخاصة فى الشريعة الإسلامية، القاهرة، مطابع الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية، 1982، ص ص 264 - 265.
- 129- د. نبيل صبحى الطويل، الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين، ط 2، قطر، كتاب الأمة، 1404 هـ، ص ص 33 - 132.
- 130- د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ص 56 - 74.

الفصل الثالث

الأدوات غير السلمية فك تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

مقدمة :

يجب الإشارة في بدء الحديث عن هذه الأدوات إلى أنه إذا كان الإسلام قد شرع الحرب والقتال لحماية كيان الدولة الإسلامية أو لتحقيق فتح جديد باسم الإسلام أو لمواجهة فتنة بغيضة تهدد المجتمع الإسلامي، فإن الله - عز وجل - قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾⁽¹⁾، أي إنه شيء لا تميل إليه ولا تحبه الفطرة الإنسانية، والأصل هو السلام، فالإسلام والسلام صنوان لأصل واحد، هو الفطرة السليمة، لدرجة أننا نلاحظ أن الإسلام والسلام كلمتان مشتقتان من مادة واحدة أو جذر لغوي عربي واحد.

ولا يخفى على أحد أن تحية المسلمين المتبادلة بينهم ومع غيرهم هي السلام، والتوجيه النبوي الشريف في هذا واضح، لبث الحب بين الناس معتمدا على تبادل السلام،⁽²⁾ ويحرص على ذلك المسلمون ويمارسونه فيما بينهم حتى لو فرق بين الواحد منهم وأخيه - في الطريق - جدار أو شجرة، فهو يعيد إلقاء السلام عليه.

وتحية الخروج من الصلاة التي يلقيها المؤمن على اليمين واليسار، هي أيضا السلام. وجعل الإسلام أفضل المتخاصمين من يبدأ أخاه بالسلام، كما في الحديث الشريف: (... وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، وهو القائل: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن ﴾⁽³⁾.

والجنة سماها الله - عز وجل - دار السلام: ﴿ لهم دار السلام عند ربهم، ... ﴾⁽⁴⁾.

والماتقون من أهل الدنيا تتوفاهم الملائكة بسلام، يقول الله - تعالى -: ﴿ ... كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم

النحل: 31 - 32

تعملون ﴾

وأهل الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم يوم القيامة وينادونهم بالسلام: ﴿ وبينهما حجاب، وعلي الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم، لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾⁽⁵⁾.

والملائكة تستقبل الفائزين بدخول الجنة بالسلام: ﴿... وقال لهم خُزَّتْهَا سَلامَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾⁽⁶⁾.

ثم هم يدخلون الجنة بسلام، يقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمَنِينَ﴾
الحِجْر: 45 - 46

بل وتحية الله لأهل الجنة هي السلام: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ، ...﴾⁽⁷⁾ و: ﴿سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾⁽⁸⁾.

وجُمْلَةً .. فإن الحق - تبارك وتعالى - أشار إلى هذا المعنى الكريم - السلم والسلام - فى القرآن الكريم ثمانياً وخمسين مرة فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، ولا أقل من الإشارة إلى النماذج التالية :

يقول الله - تعالى - :

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ...﴾ البقرة : 208
- ﴿... وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ...﴾ النساء : 94
- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، ...﴾ الأنفال : 61
- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ...﴾ يونس : 25
- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، ...﴾ النمل : 59
- ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ الصافات : 181
- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف : 89
- ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ...﴾ محمد : 35

هذا .

والحرب إن قامت باسم الإسلام كان لها هدف، ولا تكون حرباً حمقاء، ولا قتالاً لفتنة أَوْحَمِيَّةٍ أَوْعَصَبِيَّةٍ أَوْعَنْصَرِيَّةٍ، ولا تكون لهدف توسعى استعمارى كهذه الحروب وتلك التى خاضتها وتخوضها الدول غير الإسلامية بعيداً عن كل هدف أَوْغَايَةِ نَبِيلَةٍ.

وهل كانت - مثلاً - الحرب العالمية الثانية إلا ثمرة من ثمار العنصرية البغيضة؟!

فهتلر لم يكن يرى فى العالم شعباً أرقى من الشعب الألمانى، وكانت النازية تجسيدا بشعاً لهذه الفلسفة التى خربت معظم أقطار الأرض.

كما كانت الامبراطورية الرومانية تعتبر نفسها امبراطورية مقدسة دون غيرها، وكل من في العالم ليسوا سوى عبيد لها وبرابرة.

كذلك كانت النظرة في الامبراطورية الفارسية، وفي الهند، وغيرها.

ولكن في شريعة الإسلام، وفكره ومنهجه الرشيد، لا تكون الحرب إلا لضرورة تمليها أهداف إنسانية جلية عادلة، تبينها الصفحات التالية.

وللحديث عن دور الحرب والقتال كوسائل غير سلمية في تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية نعرض للنقاط التالية في مباحث ثلاثة هي:

المبحث الأول - يهدف إلى بيان مفهوم الجهاد في الإسلام، وإلى إزالة اللبس الذي ألحقه به خبثاء المستشرقين وبعض العامة من المسلمين.

المبحث الثاني - يبين أخلاقيات الحرب في الإسلام ، وإلى أي مدى كانت سابقة ما أقرته - أخيراً - الاتفاقيات الدولية.

المبحث الثالث - يتناول الأحكام والمبادئ التي قررها الإسلام لخوض الحرب أو ممارسة القتال باسم الإسلام.

المبحث الأول

مفهوم الجهاد فى الإسلام

تبين الصفحات التالية معنى الجهاد وغايته فى الإسلام ، والمراحل التى مر بها هذا المعنى ثم المرحلة التى استقر عندها . ثم تبين المغالطات التى دخلت إلى هذا المفهوم والتقسيمات المتكلفة التى حُمِلت عليه مما لا وجه له البتة .

أما معنى الجهاد⁽⁹⁾ ، فهو بذل الجهد فى سبيل الله وإعلاء كلمته وإقامة المجتمع الإسلامى . وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواع الجهاد . وأما غايته فهى إقامة المجتمع الإسلامى وتكوين الدولة الإسلامية والمحافظة على كيانها ووجودها .

وقد كان الجهاد فى صدر الإسلام مقتصرأ على الدعوة السلمية مع الصمود فى سبيلها للمحن والشدائد، ثم شَرِعَ إلى جانبها - مع بدء الهجرة - القتال الدفاعى، أى رد كل قوة بمثلها.

وقد ظل المسلمون يتبعون سياسة الدفاع المحض حتى جاءت غزوة الأحزاب، التى عانى فيها المسلمون من أثر الحصار الطويل، فلم يكتفوا بالدفاع المحض، وفى الوقت نفسه لم يستطيعوا أن يلجؤا إلى سياسة الهجوم حيث لم يؤذَنَ لهم به بعد، ولذلك اتخذوا سبيلا وسيطا هو ما يسميه العسكريون «الهجوم الدفاعى» أى أن يهجموا - مدافعين - على تكتلات الأعداء التى تستعد للزحف على المسلمين، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب⁽¹⁰⁾ .

ثم شَرِعَ إبان تلك المرحلة المتقدمة قتال كل من يقف عقبة فى طريق إقامة المجتمع الإسلامى، على الأُ يُقْبَل من الملاحدة والوثنيين والمشرَكين إلَّا الإسلام، وذلك لعدم إمكان الانسجام بين فكر المجتمع الإسلامى الصحيح وما عليه هؤلاء من إلحاد ووثنية، أما أهل الكتاب فيكفى خضوعهم للمجتمع الإسلامى وانضواءهم فى دولته على أن يدفعوا للدولة الإسلامية ما يُسمَّى "الجزية" . وعند هذه المرحلة الأخيرة، استقر معنى الجهاد فى الإسلام وحكمه، وهذا هو واجب المسلمين فى كل عصر إذا توافرت لديهم القوة والعُدَّة اللازمة⁽¹¹⁾ . وعن هذه المرحلة يقول الله - تعالى -⁽¹²⁾ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . ويقول كذلك⁽¹³⁾ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

من هنا نعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد في سبيل الله إلى حرب دفاعية وأخرى هجومية، إذ مناط شرعة الجهاد في سبيل الله ليس هو الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، إنما مناطه الحاجة إلى إقامة المجتمع الإسلامي بكل ما يتطلبه ذلك من السُّنْطِ والمبادئ والوسائل، ولا عبرة بعد ذلك بكون الجهاد دفاعاً أو هجوماً .

أما القتال الدفاعي المشروع - اصطلاحاً - كدفاع المسلم عن ماله أو عرضه أو حياته فذلك نوع آخر من القتال يُعرف بقتال الصَّائِلِ، ولا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه في الفقه الإسلامي والذي هو موضع حديثنا هنا. وقد أفرد الفقهاء لقتال الصائِلِ هذا باباً مستقلاً في كتب الفقه، وما أكثر ما يخلط الباحثون بينه وبين الجهاد.

والمُتأمل في قوله - تعالى - في مجموعة الآيات الأولى بسورة التوبة - والله ينذر فيها فلول المشركين وبقاياهم من أهل نجد وغيرهم - ليلَحظ في هذه الآيات تأكيداً واضحاً على أن الجهاد في الشريعة الإسلامية ليس حرباً دفاعية، كما يروج المستشرقون؛ فإن هذه الآيات الواضحة القاطعة، لم تُبق في ذهن أى مجال لتصور ما يسمى بالحرب الدفاعية كأساس لمعنى الجهاد في الإسلام. وحيث إن سورة «براءة» من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، فأحكامها - وأكثر أحكامها متعلق بالجهاد - مستقرة باقية⁽¹⁴⁾.

وكذلك فلَسْتُ أرى⁽¹⁵⁾ ما يدعوا إلى القول بأن هذه الآيات قد نسخت ما قبلها من الآيات التي تقرر الجهاد الدفاعي، كقوله - تعالى - : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنْ اللَّهُ عَلَيَّ نَصْرُهُمْ لَقْدِيرٌ﴾⁽¹⁶⁾؛ ذلك لأن الجهاد في أصل مشروعيته غير ناظر إلى هجوم ولا دفاع، إنما هو يستهدف إعلاء كلمة الله وإشادة صرح المجتمع الإسلامي السليم وإقامة دولة الله في الأرض. فأياً كانت الوسيلة - وسيلة الجهاد - المتعينة إلى ذلك وجب اتباعها؛ فقد تكون الوسيلة لظرف ما المسألة وبث النصيحة والتعليم والإرشاد، وعندئذ لا يفسر الجهاد إلاً بذلك .

وقد تكون الوسيلة لظرف آخر الحرب الدفاعية مع النصيح والإرشاد والتوجيه، فهذا هو الجهاد المشروع حينئذ .

وقد تكون الوسيلة المتعينة لظروف أخرى، الحرب الهجومية، فهي عندئذ ذروة الجهاد وأشرفه .

وإنما يُقدر الظرف ويُعين الوسيلة الحاكم المسلم المتبصر الواعي المخلص لله ولرسوله ولعامّة المسلمين . وهذا يعنى أن جميع هذه الوسائل الثلاث مشروعة في تحقيق الجهاد، على ألا يُطبق منها إلا ما تقتضيه المصلحة الآنية التي يقدرها الحاكم المسلم المخلص، وتبادل التطبيق بين هذه الوسائل ليس من النسخ في شيء .

والجهاد ضد أعداء الإسلام ليس محصوراً بالخروج للغزو، بل ولا يكفى منه ذلك وحده، فحيثما توقف أمر الجهاد بالقتال والسلاح على نفقات ومال، وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا من ذلك ما يقع موقعاً من الكفاية، بشرط أن يكون ذلك بنسبة ما يتفاوتون به من كفاية وغنى.

ولقد قرر الفقهاء أن الدولة إذا ما اضطرت إلى النفقات للجهاد، كان لها أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك بالشكل الذى ذكرناه، غير أنهم اتفقوا على أن ذلك مشروط بالأى يكون فى أموال الدولة ما يوضع فى نفقات كمالية أو غير مشروعة؛ إذ إن أموال الناس ليست أولى من أموال الدولة بأن تصرف إلى حاجات الجند والقتال⁽¹⁷⁾.

وبعد تقديم هذه الخلاصة الموجزة لمعنى الجهاد وغايته فى الشريعة الإسلامية نشير إلى أبرز المغالطات والتشويهات التى دسّت عليه⁽¹⁸⁾، حيث تتمثل فى نظريتين متناقضتين فى الظاهر ولكنهما منسجمتان فى حقيقة الأمر؛ إذ تتكون من كليهما وسيلة واحدة تستهدف إلغاء مشروعية الجهاد من أساسها :

أما النظرية الأولى فهى تلك التى تنادى بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف، وأن النبى ﷺ وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح الإسلامى على أيديهم فتح قهر وبطش لا فتح قناعة وفكر.

وأما النظرية الثانية فهى تلك التى تهتف بعكس ذلك، أى بعكس الأولى تماماً، فتقول إن الإسلام دين سلام ومحبة لا يُشرع فيه الجهاد إلا لرد العدوان الداهم، ولا يجب على أهله إلا إذا أرغموا عليه.

وبرغم تناقض هاتين النظريتين، فإن أرباب الغزو الفكرى أرادوا أن يحققوا منهما غاية واحدة : لقد أشاعوا أولاً أن الإسلام دين بطش وحقد وسيف، ثم انتظروا إلى أن آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم فى حق الإسلام، وبينما يلتمس المسلمون الرد على هذا الباطل قام أولئك المشككون أنفسهم بتصنعون الدفاع عن الإسلام، وراحوا يردون هذه التهمة قائلين : إن الإسلام ليس دين بطش وسيف بل هو دين محبة وسلام ولا يُشرع فيه الجهاد إلا لرد عدوان داهم، فصفق عوام المسلمين طويلاً لهذا الدفاع الخبيث فى غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك فى نفوسهم المتحفزة للرد قبولاً حسناً، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون

البرهان تلُو البرهان على أن الإسلام دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا دهموه في عقر داره وأيقظوا أهله من هدأتهم وسباتهم ، وفات هؤلاء العوام أن هذه هي النتيجة المطلوبة ، وهذا بعينه الغرض الذي التقت عليه النظريتان وأصحابهما ، حيث يسعون إلى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين .

وليس يخفى على أحد أن الغربيين يخافون من ظهور فكرة الجهاد في أوساط المسلمين؛ حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم ، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد ، وصدق الله العظيم إذ يقول فيمن لا إيمان لهم : ﴿ ... ، فإذا أنزلت سورة مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، ... ﴾ (١٩) .

كذلك مما يروج له المستشرقون - مثل اندرسن - أن الجهاد ليس اليوم بفرض ، بناءً على مثل قاعدة «تغيير الأحكام بتغير الأزمان» إذ إن الجهاد في رأيهم لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية ، ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام ، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة . ولا شك أن هؤلاء قد أساءوا فهم غاية الجهاد في الإسلام ، حين يرون أنه وسيلة قهر تُفرض بها عقيدة الإسلام ، ولم يقرؤا أنه لا إكراه في الدين ، كما يؤكد الفكر الإسلامي على ذلك دائماً .

وعلينا أن نقرأ أكثر عن مسيرة الإسلام عقب صلح الحديبية، تلك المرحلة التي بها أنجز رسول الله ﷺ دعوة ربه، وهي المرحلة التي أصبحت - بعمله وقوله - حكماً شرعياً باتفاق المسلمين في كل عصر إلى يوم القيامة، وهي المرحلة التي يحاول محترفو الغزو الفكري أن يطمسوا عليها ويغيّبوها عن أعين المسلمين بزعم أن كل ما يتعلق بالجهاد في الشريعة الإسلامية إنما هو قائم على أساس الحرب الدفاعية ورد العدوان ، ويزداد خبثهم ودهاؤهم حين يقولون : وها هي هيئة الأمم قامت لتتولى الدفاع وردّ العدوان عن المستضعفين ، فلاحاجة إذن - أيضاً - إلى استبقاء مبدأ الحرب الدفاعية!

ثم لماذا خارب محمد ﷺ عند بداية لجوئه إلى القتال؟

يجيب عن هذا السؤال المفكر البريطاني المسيحي «توماس كارليل» فيقول⁽²⁰⁾ :

«كانت نية هذا النبي أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة وقد بذل في سبيل ذلك كل جهد جهيد، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء

إليها، بل عَمَدُوا إلى إسكاته بشتى الطرق من تهديد ووعيد واضطهاد حتى لا ينشر دعوته أو يصدر رسالته. وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته، وكان لسان حاله يقول : أَمَا وَقَدْ أَبَتُ قَرِيْشَ إِلَّا الْحَرْبَ، فَلْيَنْظُرُوا إِنْ أَيْ قَوْمٍ نَحْنُ .

«لقد أصاب هذا الرسول في رأيه؛ فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق، وأبوا إلا التماذى في الباطل فاستباحوا الحرمات ، ونهبوا الممتلكات، وقتلوا الأنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق» .

واستطرد كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبي نشر دينه بالسيف ، فيقول : «أرى أن الحق ينشر نفسه بأي طريقة حسبما تقتضيه الحال، أَلَمْ تَرَوْا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعله شارلمان بقبائل السكسون. وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأي طريقة أخرى ، فَلَنَدَّعِ الحَقَائِقَ تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحابة أو بالنار، لندعها تكافح وتقاتل بأيديها وأرجلها وأظفارها، فإنها لن تهزم أبداً، ولن يهزم منها إلا ما يستحق أن يهزم، ولن يفنى منها إلا ما يستحق الفناء، فالحقائق في حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة التي لا تحترم منها إلا القوى الصحيح ...» .

وهذه نماذج من الردود العدوانية الاستفزازية التي دفعت النبي ﷺ إلى سلوك طريق الحرب والقتال :

- لقد جنَّ جنون كسرى بعد قراءة رسالة النبي ﷺ، ثم مزقها ، وقتل حاملها، ولم يكتف ، بل كتب إلى أمير اليمن - وكانت خاضعة له - يقول: **بَلِّغْنِي أَنْ رَجُلًا مِنْ قَرِيْشٍ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَسِرُّ إِلَيْهِ فَاسْتَتَبَهُ ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا فَأَبْعَثْ إِلَى بَرَأْسِهِ** ⁽²¹⁾ .

لكن قيصر كان رجلاً عاقلاً ، ورده كان يتسم بالحلم والأناة؛ فقد كانت عنده دراية بما جاء في كتب اليهود والنصارى من نبوءات تبشر بقرب ظهور النبي محمد ﷺ في جزيرة العرب، لكن حاشيته أصرَّت على الرفض وإعلان الحرب، فبدؤا يحرضون القبائل العربية في العراق والشام على حرب النبي والمسلمين . وعلم المسلمون بإصرار الروم على الحرب فبدؤا يستعدون لهذه الحرب، غير أن الفتن الداخلية شغلت كسرى وهرقل أحياناً كثيرة ⁽²²⁾ .

وتتمة لهذه الصورة نذكر أنه قد جاء في بيان الأزهري الشريف ⁽²³⁾ أن معنى الجهاد هو بذل الجهد لنيل مرغوب فيه أو دفع مرغوب عنه ، وهو يكون بأية وسيلة وفي أى ميدان:

فى السلم والحرب على السواء، ولا يتحتم أن يكون بالقتال وحمل السلاح .

ومنه جهاد النفس والشيطان والفقر والجهل والمرض، وجهاد البشر لرد المعتدى منهم على عرض أو مال أو نفس .

أما الجهاد المسلح فى سبيل الله فقد عرف فى الشرع بما يرادف الحرب لإعلاء كلمة الله ، ووسيلته حمل السلاح وما يساعد عليه ويتطلبه من إعداد وتمويل وتخطيط ، ويشترك فيه كل من يسهم فى المعركة من قريب أو بعيد .

وهذا الجهاد كان شغل المسلمين الشاغل فى بدء تكوين المجتمع الإسلامى، وأكثر آيات القرآن وأكثر الأحاديث كانت للأمر به والتشجيع عليه، قال - تعالى - : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ ⁽²⁴⁾ ، وقال النبى ﷺ : (جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ) ⁽²⁵⁾ ، وكل أنواع الجهاد مطلوبة للنجاح فى الجهاد المسلح .

وهذا الجهاد فرض عين على كل قادر عليه إن أغار علينا عدو، وفرض كفاية إن لم تكن إغارة علينا، وإذا استنفر الإمامُ القومَ وجب الخروج عليهم .

وتقديم الدعوة إلى الإسلام كان أساساً فى الحروب التى خاضها المسلمون الأول، فإن أجاب القوم قبها ، وإن رفضوا كانت عليهم الجزية، وهى مبلغ رمزى من المال مقابل حمايتهم وتركهم أحراراً يمارسون شعائر دينهم وإظهاراً لحسن نيتهم، وإن رفضوا كان القتال ليُفسحوا الطريق أمام الدعوة ، لا ليُسَلِّموا .

ولو جاءت نصوص تفيد فى ظاهرها أن القتال لأجل الإسلام ، فالمراد منها أن القتال ينتهى لو أعلن الناسُ الإسلام ، وليس خوض المعركة أساساً من أجل أن يُسَلِّموا وذلك حديث الرسول ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) ⁽²⁶⁾ . وكذلك قوله - تعالى - : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ⁽²⁷⁾ ، فلم يكن أخذ الجزية باعثاً على القتال ، ولكن كان حداً ينتهى القتال عنده ، إذا دفعوها - أى الجزية - . ولا يُكره أهل الكتاب على قبول الإسلام بأى من أساليب الإكراه، بل يستمرون على عقائدهم، داخل المجتمع الإسلامى، غير متألِّبين على نظامه العام أو بين أفرادِهِ .

ولأن الذين يتحمسون - حالياً - للجهاد المسلح لنشر الدعوة الإسلامية يحتاجون بخطابات النبي ﷺ إلى الملوك في عصره، ويقول له ﷺ : (أمرتُ أن أقاتل الناس حتي يشهدوا ألاً إله إلا الله ... الحديث الشريف) ، ويقول الله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ويرون هذه الآية - التوبة : 5 - نسخت كل ما سبقها من آيات تتضمن الإشارة إلى الجهاد بصوره السلمية وإلى معاني المودة والصفح والسماح والصبر على أذى الأعداء، ففيما يلي نقدم بين أيديهم - بصُرننا الله وإياهم وهدانا أجمعين - هذه المعالجة لرؤيتهم.

أولاً - إن رسائل النبي ﷺ إلى الملوك : (النجاشي والمقوقس وقيصر وكسرى) الملحقه بكتابنا هذا، كلها تحمل أسلوب الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادل - حين يضطر - بالتى هى أحسن :

- فقد قال للنجاشي : (... فإنني أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل -، ويُلغَتْ ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام علي من اتبع الهدى) .

- وقال للمقوقس : (... أسلمَ تسلمَ ، يُؤتِكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط ...) .

- وقال لقيصر : (... أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ...) .

- وقال لكسرى : (... فإن تُسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك) .

أما ما ورد في كتابه ﷺ إلى أهل نجران من قوله : (... فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أذنتكم بحرب) ، فيحمل على أنه حكم خاص لا ينهض أمام الحكم العام، الذى أشرنا إليه سابقاً ، بتوضيحنا أن أسلوب الرسول ﷺ فى كتبه هو أسلوب الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة .

ونجران تلك كانت منطقة صغيرة فى جزيرة العرب، وكان لمسيحييها علاقة سابقة بالنبي ﷺ أبرزت فكرة (المباهلة) ، ولعل هذا ما جعل لها هذا الحكم الخاص فى الخطاب، على ما ذهب إليه الأستاذ جمال البنا فى مناقشته لكتاب (الفريضة الغائبة) .

ثانياً - أما عن حديثه ﷺ القائل فيه : (أمرت أن أقاتل الناس ... الحديث الشريف) ، فالمتفق عليه بين فقهاء المسلمين جميعاً ، أن هذا الحديث ليس عاماً مطلقاً ، لأن المراد - كما قالوا - بكلمة (الناس) فيه هم مشركو العرب تحديداً ؛ لأن غيرهم من أهل الكتاب أو مشركي غير العرب لهم الحكم العام وهو أنهم يقاتلون - إذا لم يستجيبوا إلى الوسائل السلمية للدعوة - حتى يعطوا الجزية أو يسلموا .

وهذا ما أشار إليه أيضاً الأستاذ جمال البنا في مناقشته للـ (الفريضة الغائبة) ، نقلاً عن فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف .

وأكد هذا أيضاً فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، في أكثر من كتاب وحديث .
بل إن كلمة (الناس) ترد في سياق بمعنى ، وبمعنى آخر في سياق آخر :
- فتارة تشير إلى فرد بعينه ، كما في قوله - تعالى - :

﴿ الذين قال لهم الناس ... ﴾ . آل عمران : 173

- وتارة أخرى تشير إلى جماعة من الناس ، كما في قوله - تعالى - :

﴿ ... إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ... ﴾ . آل عمران : 173

- وتارة ثالثة تشير إلى العالمين جميعاً ، كما في قوله - تعالى - :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... ﴾ البقرة : 21

وهكذا ...

و(الناس) في هذا الحديث عُموم أريد به خُصوص ، وقصد بها - تحديداً - مشركو العرب وناقضو العهد ، وقد قيل هذا الحديث موازياً في معناه معنى آيات صدر سورة (براءة) ، ويرجع في ذلك إلى تفسير البيضاوي وصفوة التفاسير .

وهذا يعني أن الأمر بالقتال في هذا الحديث ليس مطلقاً في حق الناس جميعاً ، بل مشركي العرب وناقضي العهد ، الذين اعتدوا على المسلمين ؛ فهؤلاء لا يقبل منهم بعد ما بَدَر من جانبهم في حق المسلمين - نقض العهد والعدوان - إلا قول لا إله إلا الله - أي الإسلام - .

و(حتى) الواردة في الحديث حرف جر يفيد الغاية ، أي إنها تعمل عمل (إلى) الغائية ، ولكن في شأن من قيل في حقهم الحديث ، وقد كان وانتهى الأمر ، ويراجع في هذا ما سبق تفصيله .

أما أهل الكتاب والمشركون من غير العرب فيقبل منهم - كما أشرنا - الجزية أو الإسلام، وإذا كانت هناك ضرورة إلى قتالهم بعد دعوتهم السلمية، فبيان ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة : 29 والمفسرون على أن هذه الآية خاصة بأهل الكتاب - اليهود والنصارى - .

(راجع تفسير الجلالين وصفوة التفاسير).

وقال ابن كثير - بتحقيق الصابوني - : «نزلت هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب. بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله ﷺ بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى -، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز الرسول ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم» .

ولعل المتأمل في تصرف النبي ﷺ في هذا الموقف، يرى أنه يمثل واحداً من المرتكزات الأساسية التي بنيت عليها قرارات الخلفاء الراشدين من بعد، في الخروج إلى معظم الفتوحات الإسلامية .

...

نعود إلى تناول آية الجزية، فأقول: إن معالجة البيضاوى لها أوجه وأشمل؛ فقد تعرضت لأراء أئمة الفقه :

قال البيضاوى : «ومفهوم الآية يقتضى تخصيص الجزية بأهل الكتاب، ويؤيده أن عمر - رضى الله عنه - لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر وأنه قال : (سَنُوا بِهَا سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ) ؛ وذلك لأن لهم شبهة كتاب فألحقوا بالكتابيين» .

وأضاف : «وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا» .

: «وعند أبى حنيفة - رحمه الله - تؤخذ منهم - يقصد سائر الكفرة - إلا من مشركى العرب ، لما روى الزهرى أنه ﷺ صالح عبدة الأوثان، إلا ما كان من العرب» .

: «وعند مالك - رحمه الله - تؤخذ من كل كافر إلا المرتد» .

و«حتى» الواردة في هذه الآية غائية أيضاً، وتفيد أن القتال يتوقف عند تحقق إحدى الغايتين : الإسلام أو الجزية - على الأقل - .

ثالثاً - أما الآية الشريفة : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ... ﴾ التوبة : 5

فشأنها نبينه في السطور التالية :

1 - قال بيان الأزهر الشريف: إن هذه الآية الكريمة نزلت في مشركي العرب، الذين لا عهد لهم، حيث نبذت عهودهم، وحدد الله لهم موعد الأشهر الحرم الأربعة. والأمر بقتال مشركي العرب فيها مبني على أنهم البادئون بالحرب والناكثون للعهد، كما جاء في آية أخرى بعد ذلك، فيقول الله - تعالى - :

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرْءَةٌ، أُتُّخِشْتُمْ، قَالَ اللَّهُ أَهَٰؤُلَاءِ أَتُخْشَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ ﴾

التوبة : 13

وراجع في ذلك أيضاً تفسير البيضاوي وتفسير الجلالين وصفوة التفاسير، وكلامنا السابق عن حديثه ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس ... الحديث الشريف).

بل إن الأمر بقتال هؤلاء لا يكون إلا عند اعتدائهم على المسلمين أو نكثهم العهد؛ قاله - تعالى - يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۖ ﴾

التوبة : 4

ويقول أيضاً : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۖ ﴾

التوبة : 7

2 - قال ابن كثير - بتحقيق الصابوني - : «وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك : إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد وكل مدة. وقال ابن عباس في هذه الآية : أمره الله - تعالى - أن يضع السيف في من عاهد إن لم يدخلوا الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي : هي منسوخة بقول - تعالى - : ﴿ ... فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ... ﴾، - محمد : 4 - وقال قتادة بالعكس .

3 - وفي كتاب (نقض الفريضة الغائبة - فتوى ومناقشة فضيلة الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر، والشيخ عطية صقر، رئيس لجنة الفتوى بالأزهر)، جاء تحت عنوان (آية السيف) - رداً على من المتحمسين لفكرة الجهاد المسلح - :

« يقولون إن آية السيف نسخت كل آية فيها الصبر على أذى الأعداء وأوردوا آراء كثيرة في تفسير هذه الآية، ولم يرتضوا قول السيوطي في أن آيات الصبر هي عند الضعف وآيات القتال هي عند القدرة. ويقولون : إن تعطيل الجهاد تعطيل لنيته مع الأمر بها. والرد على ذلك هو أن الأقوال إذا كانت متعددة في تفسير آية السيف، فمعنى ذلك أنها آراء اجتهادية، لا يجوز التعصب لبعضها. والسيوطي ممن لهم رأى في التفسير، فلماذا لا يكون رأيه هو الراجح ؟ ثم إن الجهاد مفروض وباق إلى يوم القيمة، وقد سبق أن قلنا : إن الجهاد ميادينه متعددة وأساليبه متنوعة. وبالنسبة للمشركين يكون جهادنا لهم بما استطاع مما نص عليه الحديث (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم). ومادامت الوسائل متعددة فالجهاد يكون بما هو أنسب، والمتفق عليه أن

العدو إذا هاجمنا ولم يكن إلا القتال وسيلة للدفاع وجب القتال. ونية الجهاد والغزو لا بد أن تكون موجودة دائماً ليكون الإنسان مستعداً عند الاقتضاء، والنية نفسها تستلزم الاستعداد الذي قال الله فيه : ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ . وليس معنى الإعداد أننا نهاجم ونعتدى ولكنه للإرهاب كما تقول الآية، بمعنى أن العدو إذا علم أننا مستعدون لا يفكر في الهجوم علينا، وعند اعتدائه وجب قتاله لامحالة.

والمقصود بالإرهاب المشار إليه في السطور السابقة هو ما يُعبر عنه حديثاً بالردع الذي ينشأ أثره في جانب العدو على أثر علمه وإدراكه أبعاد قوتنا .

وكما جاء - أيضاً - في الجزء الأول في كتاب (بيان للناس من الأزهري الشريف) ، فلأن الإسلام دعوة عالمية، كان لابد أن تبلغ إلى العالم كله، والوسيلة إذ ذاك هي السفر والضرب في الأرض، والسفر كانت تحفه المخاطر مع وعورة الطرق وطول الزمن واختلال الأمن، فكان لابد من التسلح حتى لا يقف الأعداء في طريق الدعوة، فسيكونون أشد مقاومة لها؛ لأنها لم تكتف بالبلد الذي قامت به، بل خرجت إلى كل أطراف العالم، لا إلى مدى محدود.

وأضاف البيان «وإذا كان السيف لابد منه لتأمين الدعوة في الأزمان السابقة، فإنه في هذه الأيام لاهمة له إلا الدفاع ضد من يريدون شرّاً بالإسلام وأهله، أما نشر الإسلام فله وسائل عدة لا تحتاج إلى سفر ولا تخشى معها مخاطر الطريق، بل لا توجد حدود تمنع المسلمين اجتيازها إلا بإذن واتفاقات - كما كان في الماضي -، فإن الصحف والمكاتبات وما إليها أصبحت تتخطى الحدود، ولئن أمكن التحكم فيها إلى حد ما، فإن الإذاعات اليوم أصبحت من القوة والانتشار بحيث لاحقت الناس في بيوتهم وعلى أسرهم، ولا تمنعها سلطة، ولا تقف دونها حدود ولا أبواب . فالذين يركزون اهتمامهم على السلاح اليوم من أجل نشر الدعوة جماعة شغلوا أنفسهم بسلاح واهن ضعيف عن أسلحة هي في غاية القوة والخطورة، حاربنا بها أعدائنا ونحن عنها غافلون» .

والحق أن أعمال السيف - بمعنى اللجوء إلى القتال - لا يكون فقط لتأمين الدعوة السلمية وحمايتها، ودفع من يقفون في طريقها، أو الدفاع ضد من يريدون شرّاً بالإسلام، كما يفهم من بيان الأزهري الشريف.

بل إن أعمال السيف - أو القتال بأدواته المتاحة في كل عصر - يكون أيضاً الأداة الحاسمة الأخيرة ، بعد إخفاق وسائل سلمية عديدة تسبقه ، يلجأ إليها المسلمون - بأولويات شرعية مقرر - لإعلاء كلمة الله في الأرض، حتي فوق رأس من لا يؤمنون بها، فهذا هو شأن كلمة الله ، وتحقيق هذا هو جوهر رسالة المسلمين، مأخوذاً في الاعتبار أنه لا إكراه في الدين مع علو كلمة الله - لواء الإسلام ومظلته - .

ألم تروا أن رسول الله ﷺ وخلفاءه من بعده التزموا أمر الله وقاتلوا الكفار: الأقرب فالأقرب حتي وصلوا إلي الأبعد فالأبعد ؟ لا ليقيموا الإيمان أو الإسلام في قلوب الناس ولكن ليعلنوا كلمة الله، وإذا أسلم الناس قلوبهم، وإلا فالجزية ، إقراراً بعلو كلمة الله فوقهم.

ألم تروا أن قادة دولة الإسلام الأوائل كانوا كلما علو - بكلمة الله - أمة، انتقلوا إلي من بعدهم، ثم الذين يلونهم :

كانت البداية علي يد رسول الله ﷺ : فقاتل مشركي العرب، ثم لما فرغ منهم تجهز لغزو الروم، ولما عاجله أجله ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فأدي عنه، وشرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلي الروم وإلي فارس ، وكان تمام الأمر علي يدي الفاروق عمر فأعلي كلمة الله في الممالك شرقاً وغرباً، ثم واصل عثمان ومن بعده ... وهكذا تباعاً .

ولكن متى يكون إعمال السيف أو القوة أداة لإعلاء كلمة الله ؟

يكون ذلك حين تكون لدين الله في الأرض - الإسلام - دولة، كالتى كانت في عهده ﷺ وفي عصر الفتوحات الإسلامية، أي دولة مَكَّنَ لها رجالها في الأرض تمكيناً أتاح لهم أو أستطاعوا في ظله أن يطبقوا أمر الله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة : 123

وأمره - تعالى - : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة : 29

ولأن التكليف الذي تحمله الآيتان ما زال وسيظل قائماً (*) .

فإلي أن نقيم - نحن مسلمي اليوم - غداً بإذن الله ، دولة موحدة قوية مُمَكِّنًا لها في الأرض تستطيع أن تطالب اليهود في إسرائيل أو المسيحيين في شرق العالم وغربه بالإسلام، وإلا فالجزية؛ اعترافاً من جانبهم بعلو كلمة الله الخاتمة - الإسلام - عليهم .

أي : إلي أن تكون لنا قوة نستطيع في ظلها أن نطالب رابين وبلتسن وكلينتون وشعوبهم بدفع الجزية، إن رفضوا الإسلام.

أقول : إلي أن نحقق ذلك ، فليس أمامنا إلا إعمال الوسائل السلمية لنشر الإسلام، وإلا : فهي الحماقة إذن .. أو الانتحار.

وإلي أن نحقق ذلك أيضاً علينا أن نواصل الأخذ بكل سُبُل إعداد القوة، ما استطعنا إلي ذلك سبيلاً : في كل مجالات الحياة.

بالإيمان والعمل.

داخلياً وخارجياً.

وأخيراً ، فالقضية نراها - في جوهرها - قضية رجال، بقدر ما هي قضية إيمان وعمل .

(*) راجع تفاسير ابن كثير والبيضاوي والجلالين والصفوة للصابوني .

المبحث الثاني

أخلاقيات الحرب والسلام في الإسلام

إن العقيدة الإسلامية ينشرها السلم والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليست الحرب ولا تكون إلا ضرورة في شريعة الإسلام لها أخلاقها وضوابطها وأهدافها النبيلة. وصدق الحق - تبارك وتعالى - حيث قال : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ... ﴾⁽²⁸⁾.

وقد أدرك ذلك المسلمون الأوائل في حياة رسول الله ﷺ حتى لقد سَمُوا صلح الحديبية فتحاً واعتبروه هو الفتح وذلك قبل أن يحدث فتح مكة فعلاً وحقيقة بعامين من الزمن. وذلك لأن الدعوة سارت في سلام بعد هذا الصلح وفتحت لها الأفاق. ويقول المؤرخون : إن من دخل الإسلام في السنتين اللتين تلتا صلح الحديبية أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاماً بدءاً من مطلع الإسلام وحتى ذلك الصلح⁽²⁹⁾.

ولا تهدف الحرب مطلقاً - في شريعة الإسلام - إلى فَتْكِ أَوْتَشَفٍ أو مُثْلَةٍ أو تخريب، بل إن إعداد القوة يكون من البدء مستهدفاً تجنب الحرب وعواقبها التي تنزل بأعداء المسلمين، ويتمنى المسلمون لو أن قوتهم أنزلت الرهبة والخوف في قلوب أعدائهم وجعلتهم يتراجعون عن غيهم وعنادهم ويميلون إلى السلام أو إنهاء الموقف بغير لجوء إلى قتل أو تدمير.

وانظر إلى قوله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، ... ﴾⁽³⁰⁾. وهذه في الوقت نفسه دعوة إلى يقظة المسلمين الدائمة في السلم من أجل الحرب إن وقعت. بل يشير الله - عز وجل - إلى أن القوة الظاهرة في يد المسلمين هي أشد رهبة في صدور الأعداء : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ... ﴾⁽³¹⁾. والحرب ضرورة تُقَدَّرُ بقدرها : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁽³²⁾. وإذا طلب الأعداء السلام جنح المسلمون إليه مأمورين أيضاً كما سبق أن أشرنا في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، ... ﴾⁽³³⁾. بل إن المسلمين يجيرون الكفار أنفسهم - لظروف معينة وبكيفية معينة - حيث يقول الله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾⁽³⁴⁾.

بل إذا كان على المسلمين نصر إخوانهم فلا ينصرونهم على قوم عقدوا معهم موثقاً،
فذلك قول الله : ﴿... وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ...﴾ (35).

والمسلمون لا يعرقون الغدر ولا الخيانة: لما اشتد المرض على ريتشارد قلب الأسد
أرسل إليه صلاح الدين طبيبه ليعالجه، فأوجس خيفة رجال حاشيته. فلما تبين الطبيب
فى عيونهم الحذر قال : (إن المسلمين لا يطعنون من الخلف، ولا يستخدمون الغدر، حتى
لو كان لهم فى ذلك فائدة كبرى، فكيف وموت ملككم مسموماً لا يجلب لصلاح الدين
أى مجد؟!) . وتناول الملك دواء طبيب صلاح الدين حتى شفى (36).

كذلك يهتم الإسلام كل الاهتمام بصلات الإنسان بأخيه، ولهذا يتسامح المسلمون
أعظم التسامح مع شعوب الدول التى تحاربهم؛ فالحرب عندهم ليست بين الشعوب،
وإنما بين القوات التى تصطرع فى الميدان، فلا تنقطع العلاقات مع الشعوب ولا مع
الرعايا التابعين للعدو، ولا يعتقلهم المسلمون ولا يصادرون أموالهم. ويستمر الأمان
المعطى للتجار منهم، إذ يدخلون الديار الإسلامية مستأمنين فيزاولون تجارتهم وتحصن
أموالهم، كما يجوز أن تخرج المتاجر إلى البلاد المحاربة حاملة بضائع البلاد الإسلامية إلا
أدوات الحرب.

وإذا بعث الحربى من دار الحرب عبداً له تاجراً إلى دار الإسلام بأمان، فأسلم العبد
فيها، بيع وكان ثمنه ملكاً لمالكه الحربى؛ فإن حق الحربى لا يضيع فى بلاد الإسلام.

فإذا وضعت الحرب أوزارها أمر الإسلام بالعدل مع الأعداء كالعدل مع الأولياء حتى لا
تفرض عليهم شروط مُدلة ، لأن المعاهدات عهود، شرطها المساواة. وهكذا تجرى سنة
الإسلام بالعدل والإنسانية، حتى مع رعايا العدو، ذلك قول الله - تعالى - : ﴿... وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمِ عَلٰى أَلَّا تَعْدِلُوا، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، ...﴾ (37).

هذا وغيره من أخلاق الحرب والسلام يكاد يكون معلوماً لدى كل أبناء الأمة
الإسلامية، وكثيراً ما تناوله الكتاب وحملة أقلام الفكر الإسلامى (38).

والمراجع كتاب الله - عز وجل - يجد أن التعبير (فى سبيل الله) ورد مرتبطاً بالجهاد
والقتال اثنتين وثلاثين مرة (39)، مما يؤكد حقيقة نبيل هدف الحرب وغايتها فى الشريعة
الإسلامية ونُعدها عن أى هدف استعمارى توسعى؛ فهى لإعلاء كلمة الله. وكذلك
فى كتاب الله آيات تؤدى المعنى نفسه كقوله - عز وجل - : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ، ...﴾ (40).

والسلام فى الإسلام بعيد عن الاستسلام ؛ لأنه سلام إيجابى، فيه حركة وحياة ومبادرة، فنحن نستعد بالقوة ونتسلح باليقظة لنرهب جانب العدو، وإذا ما اعتدى علينا صدّدناه بقوة رادعة، وصدق الحق - تبارك وتعالى - حيث قال: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ... ﴾. الأنفال : 60
هــذا .

ويؤخذ فى الاعتبار - بدايةً - أنه فى الأوضاع الطبيعية أو عقب إنهاء الحرب بين المسلمين وغيرهم بالسّلام والصلح أو النصر، تكون القاعدة العامّة المنظّمة لعلاقات المسلمين بغيرهم هى اعتبار جميع الناس إخوة والسّلم هو الأساس، وإذا حافظ غير المسلمين على السّلم فهم والمسلمون إخوة فى الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام دون إضرار أو تجاوز.

بل إنه من المقرر إسلامياً أن إنهاء الحرب لا يتوقف على أن يُسلم الأعداء ، بل يكفى أن يكفّوا شرهم أو أن يتعهدوا بذلك^[41].

وإذا كانت فى عالم اليوم منظمات دولية واتفاقيات مثل اتفاقيات جنيف الخاصة بتنظيم مبادئ التعامل بين الدول والجيش فى حالة الحرب، فإن هذا مسلك حديث، ولا يزيد عمر اتفاقيات جنيف على العشرات من السنين، أما الإسلام - فى عصور الهمجية التى مرت بها أوربا - فقد كانت شرائعه ومبادئه غرة على جبين الزمن .

لقد تجاوزت شريعة الإسلام هذه المحنة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً وتفوقت عدالته وإنسانيته على كل هذه المواثيق والاتفاقيات التى يتغنى بها العالم المعاصر، وأدلة ذلك كثيرة^[42]:

كان النّبي ﷺ يوصى الجيش عندما يتحرك قائلاً:

«انطلقوا باسم الله، وعلى بركة رسوله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين، إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور». ورأى ﷺ فى بعض حروبه امرأة مقتولة من الأعداء ، فغضب وأنكر وقال: «ألم أنهكم عن قتل النساء. ما كانت هذه لتقاتل».

ومن وصايا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - لقادة الجيش: «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمكّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً. ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا بقرة ولا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرّون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعّوهم وما فرغوا أنفسهم له».

وكان عمر - رضى الله عنه - يقول عند عقد اللواء لأمير الجند: «باسم الله. على عون الله امضوا بتأييد الله، ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر. قاتلوا ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين. ولا تَجَبُّنُوا عند اللقاء. ولا تُثَمِّلُوا عند المقدرة. ولا تسرفوا عند الظهور. ولا تقتلوا هَرَمًا ولا امرأة ولا وليدًا وتَوَقُّوا قَتْلَهُمْ إنا التقي الفرسان وعند حَمَّةِ النُبَضَاتِ، وفي شَرِّ الغارات نَزَّهوا الجهاد عن غرض الدنيا. وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم».

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامى فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرا بغير حق فكتب عمر إلى عامله هناك أن يَنْصَبَ لهم قاضيا فينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا، فحكم القاضى - وهو مسلم - بإخراج المسلمين، على أن ينذر قائد الجيش الإسلامى أهل سمرقند بعد ذلك، ويُنايَظَهُمْ وَفَقَا لمبادئ الحرب فى الإسلام، حتى يكونوا على استعداد لقتال المسلمين فلا يُؤْخَذُوا بَغْتَةً.

فلما رأى ذلك أهل سمرقند، رأوا ما لا مثيل له فى التاريخ من عدالة تنفيذها الدولة على جيشها وقائدها، وقالوا: هذه أمة لا تُحَارَبُ، وإنما حكمها رحمة ونعمة، ثم رضوا ببقاء الجيش الإسلامى، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم.

* * *

* *

*

المبحث الثالث

أحكام الحرب والقتال في الشريعة الإسلامية

إلى أن أذن الله لرسوله ﷺ بالقتال في قوله - تعالى - ⁽⁴³⁾ : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن ديارِهِم بِغَيْرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، ... ﴾ ، كان الرسول ﷺ يرد أصحابه عن القتال ويدعوهم إلى الصبر ويعلم لهم في حزم : (لم أؤمر بقتال) .

ومنذ تنزل هذا الإذن من السماء إلى المؤمنين بعد هجرتهم إلى المدينة وعلى مدى السنوات العشر التي عاشها ﷺ بين أظهر المؤمنين مؤسساً ومشيداً بناء الدولة الإسلامية ورأسماً لها مناهج سيرتها داخلياً وخارجياً، كانت آيات السماء فيما عرف بالقرآن المدني الذي وضع الخطوط العريضة وعالج أدق القضايا الآنية والمستقبلية لمسيرة الدولة الإسلامية داخلياً وخارجياً كما أشرنا. وفي صدارة هذه القضايا والأحكام كانت قضية الجهاد والأحكام المتعلقة به، خاصة إذا أخذ هذا الجهاد شكل الحرب أو القتال بين الدولة الإسلامية وغيرها .

وكانت جملة السور المدينة ثمانياً وعشرين سورة بيانها كالتالي - حسب ترتيب نزولها - : البقرة - الأنفال - آل عمران - الأحزاب - الممتحنة - النساء - الزلزلة - الحديد - القتال (محمد) - الرعد - الرحمن - الإنسان - الطلاق - البينة - الحشر - النور - الحج - المنافقون - المجادلة - الحجرات - التحريم - التغابن - الصف - الجمعة - الفتح - المائدة - التوبة - النصر ⁽⁴⁴⁾ .

والمتتبع والمتناول ما تضمنته هذه السور من أحكام يجدها ترسم فكرة الجهاد وتضعها في صورة واضحة تتمشي مع الغزوات التي خاضها الرسول ﷺ والمسلمون معه منذ أولها - غزوة الأبواء - حتى آخرتها - غزوة تبوك - وكانت جملة مغآزیه ﷺ سبعا وعشرين. وكانت جملة سراياه سبعاً وخمسين ⁽⁴⁵⁾ . وإن ذكر ابن هشام أن جملة بعوثه وسراياه ﷺ كانت ثمانياً وثلاثين .

وكذلك تتبلور مجموعة أخرى من أحكام الحرب والقتال من الممارسات الفعلية التي مرَّ بها الخلفاء الراشدون وقادة الإسلام ممن رضيت الأمة نهجهم وتناقلت بفخر واعتزاز سيرتهم باسم الإسلام .

وفيما يلي نعرض أهم هذه المبادئ والأحكام :

١ - لقد كانت السنوات الست الأولى التي قضاها رسول الله ﷺ في المدينة عقب الهجرة، عهد قتال مريـر ضد أعداء محيطين بالمدينة في كل مكان إحاطة السّوار بالمعصم، مُتَحْزِينَ ضده، متناصرين على العزم على القضاء التام عليه .

وكان ﷺ وأصحابه في رباط دائم في تلك الفترة :

فقد أرسل ﷺ في مستهل السنة الأولى من الهجرة كثيراً من السرايا منها سرية حمزة بن عبد المطلب وسرية عبيدة بن الحارث وسرية عبد الله بن جحش، كما قام ببعض الغزوات قبل غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية كغزوة الأبواء وغزوة بواط وغزوة العشيرة . وكذلك فقد أعقب غزوة بدر الكبرى غزوة بنى سليم وغزوة السويق، وأرسل سرية لزيد بن حارثة، ثم غزوة أحد في نهاية السنة الثالثة، وأعقب أحد غزوة الرجيع وسرية بئر معونة وغزوة بنى النضير وغزوة بنى لحيان وغزوة ذات الرقاع وغزوة بدر الصغرى وغزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق في السنة الخامسة الهجرية وأعقبها وفي يوم انتهائها غزوة بنى قريظة ثم غزوة ذي قرد وغزوة بنى المصطلق .

وقد تقرر في تلك الفترة كثير من المبادئ العسكرية في الحرب والقتال، وذلك فيما يتعلق بقواعد الضبط والتزام أوامر القائد ومشاورته جنده، وفنون الدفاع كحفر الخندق، ومتابعة المسلمين جيش الأعداء الهارب ولو عن ضعف كما حدث في أحد، ومواجهة المشاة للفرسان، وغير ذلك، ثم بعض القواعد الخاصة بالمعاملة الدولية، وهو ما نورد في السطور التالية :

أ - ضرورة الإنذار بالقتال قبل بدئه والدعوة إلى السلم قبل الشروع فيه، وقد روعي ذلك في مختلف الغزوات المشار إليها سابقاً . ومع ذلك فإن استدعت الظروف عدم الإنذار جاز . فإن رسول الله ﷺ دهم بني المصطلق وهم غافلون . وبعدها فاجأ خيبر في الصباح الباكر وهم خارجون إلى الحقول .

ب - جواز فداء الأسرى والمنّ عليهم - إطلاقهم بلا مقابل - وذلك كما حدث في بدر إذ فادى العباس وعقيل بن أبي طالب وغيرهما بفدية دفعوها . كما منّ ﷺ على ثمامة بن أثال - أحد بني حنيفة - لما رآه من نصرة الإسلام بذلك .

هذا :

وأمرُ الله - عز وجل - فى شأن الأسرى عامة توضحه الآية : 67 من سورة الأنفال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، ... ﴾ والآية : 4 من سورة محمد : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَسُدُّوا الرِّقَابَ فَمَا مَتَّأَ بَعْدُ وَإِنَّمَا قَدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ... ﴾ . حيث تُبينان ضرورة أخذ الأعداء بالشدة والإثخان حتى تنكسر شوكتهم أو يقع منهم فى الأسر من يقع .

وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية أن الإمام مخير فى الأسرى بين القتل والاسترقاق والفداء - بأسرى من المسلمين أو نظير مال أو عمل صالح يقدمونه للمسلمين - والمنّ عليهم، كذلك ورد أن على ولى أمر المسلمين ضرورة متابعة التعرف على أحوال أسرى المسلمين لدى الأعداء وزيارتهم، وفى التاريخ الإسلامى أمثلة ونماذج لكل هذه المعاملات، مع ضرورة الإشارة إلى أن ابن القيم - فى زاد المعاد - نفى استرقاقه ﷺ للرجل الحر البالغ، والإشارة إلى أن المسلمين - برغم حرص الإسلام على إلغاء الرق - يضطرون إلى استرقاق بعض الأسرى معاملةً للأعداء بالمثل، ويكثر أن يكون هؤلاء الأسرى من أرقاء العدو الذين تم أسرهم وآثروا ألا يعودوا إلى ساداتهم، وأحياناً يستبقى المسلمون بعض الأسرى من سادة الأعداء للضغط بهم على الأعداء وتحرير أسرى المسلمين بهم . ويميل أكثر المفكرين إلى اعتبار حكم الأسرى بين المنّ والفداء، ويرون ما عدا ذلك من قتل واسترقاق هى أحداث أو أحكام قضت بها ظروف خاصة⁽⁴⁶⁾ .

ج - جواز النكاية بالعدو - استثناءً - إذا استعصى على الحصار، بقطع زرعه ونخله، ونحو ذلك، كما فعل ﷺ مع بنى النضير، فلنزل الله - تعالى - فى ذلك قوله : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾⁽⁴⁷⁾ .

د - جواز مصادرة العناصر القريبة المعاشة للمسلمين - كيهود المدينة - وجواز قتل من ينقض العهد منهم باعتبارهم حربيين يجوز قتلهم ككعب بن الأشرف وابن أبى حقيق، وجواز إجلائهم كبنى قينقاع وبنى النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ، وقد تقرر بعد ذلك قواعد لنقض العهد كما سيجىء .

هـ - وقد أوشكت تلك المرحلة أن تؤدى إلى محق المسلمين واستئصال شأفتهم لما تحرّب العرب من قريش وحلفائهم واليهود ضد المسلمين فى غزوة الأحزاب (الخنندق) ولكن الله سلّم .

وقد تقرر في ذلك : أنه يجوز للمسلمين أن يطلبوا الهدنة ويدفعوا الجزية لأعدائهم إن خيفَ اضطلامهم (استئصالهم) : ذلك أن رسول الله ﷺ عرض على بعض الأحزاب أن يرجعوا ولهم ثلث خراج المدينة كجزية ولكن الأنصار أبوا ذلك إباءً عزيزاً ونصروا الله ورسولهم فأعزهم ونصرهم .

ولما كان العدوَّان الرئيسيان للرسول ﷺ وصحبه هما قريش في الجنوب واليهود في الشمال، وكان الموقف يتطلب أن يفض الرسول ﷺ هذا الحصار ويغلق الجبهتين، فقد أوحى الله - تعالى - إلى رسوله ﷺ بتوقيفه أن يعقد معاهدة على أية حال وبأية شروط يهادن بها قريشاً، ويتفرغ لمواجهة اليهود وهو آمن على ظهره من قريش .

وبذلك سار النبي ﷺ إلى الجنوب تجاه قريش في أواخر السنة السادسة من الهجرة قاصداً عقد الهدنة - بأي شكل - مع قريش لهذا الغرض، حتى قال ﷺ وهو في طريقه إليهم : (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها). وكان ﷺ ينوي العمرة في الوقت ذاته، ولكن قريشاً صدته عن البيت ، فكان ما كان عند الحديبية مما اشتهر ذكره، وتوصل ﷺ مع ممثلهم سهيل بن عمرو إلى ما عرف بصلح الحديبية، وكانت هذه المعاهدة فتحاً مبيناً حتى قال بعض الصحابة: (تَعْدُونَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحاً، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْحَدِيبِيَّةَ هِيَ الْفَتْحُ) ، ونزل قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ بينما الرسول ﷺ منصرف من الحديبية عائداً إلى المدينة⁽⁴⁸⁾ .

وقد ترتب على هذه المعاهدة نتائج خطيرة، أهمها ما يلي⁽⁴⁹⁾:

- (1) أغلق النبي ﷺ الجبهة الجنوبية وأمن شرها وتفرغ للجبهة الشمالية (اليهود) .
 - (2) أقبل كثير من أفراد وقبائل العرب على معاهدة الرسول ﷺ بمثل معاهدة الحديبية.
- 2 - ولما كان عام الفتح وما تلاه تقرر مبادئ دولية وأمنية عليا ، نذكر منها⁽⁵⁰⁾:

أ - مبدأ حق رئيس الدولة في العفو عن مرتكب جريمة مخابرة العدو والتجسس، كما فعل ﷺ مع حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل لقريش يخبرها بعزم النبي ﷺ على فتح مكة، وهم بعض الصحابة به فمنعهم ﷺ عنه لأنه كان من أهل بدر .

ب - مبدأ عدم القتل قبل عرض الإسلام، وذلك كما فعل ﷺ، فقد هم المسلمون بقتل أبي سفيان حين عثروا عليه يوم الفتح، ولكنه ﷺ منعهم وعرض عليه الإسلام فأسلم.

ج - مبدأ محاولة تأليف الشعوب المغلوبة في ظل زعمائها الأصليين، كما فعل ﷺ مع قريش يوم الفتح حين قال : (من دخل داره فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

د - مبدأ جواز أمان المرأة ، فقد أجارت أم هانئ ولدها ، وكان على بن أبي طالب يريد قتله فقال ﷺ : (أجرنا من أجارت أم هانئ).

هـ - ومن الأحكام الحربية أيضاً المستنبطة من غزوة حنين حكم تحريم قتل النساء والأطفال والزراع والأجراء والعبيد في الجهاد، وقد دل على ذلك حديثه ﷺ لما رأى امرأة قتلها خالد بن الوليد، وقد اتفق كل العلماء على ذلك، ويستثنى منه إذا ما اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين، فإنهم يُقتلون مُقبلين، ويجب الإعراض عنهم مُنبرين. كما يُستثنى ما إذا تترس الكفار بصبيانهم ونسائهم، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم، فإن ذلك جائز وعلى الإمام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة⁽⁵¹⁾.

وَأَمَّا مَنْعُ قَتْلِ الرِّهْبَانِ فَكَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -⁽⁵²⁾.

و - ثم كانت غزوة أوطاس - عقب حنين - وتقرر فيها جواز قتل الشيخ الفاني إذا كان ذا رأى . وفيها أيضاً تقرر حكم المرأة السبي - المأسورة - إن كانت ذات زوج⁽⁵³⁾ ، وفيها قوله - تعالى - : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ...﴾⁽⁵⁴⁾.

ز - وكذا ما كان من فتح الطائف - وكانت تصفية لعناد هوازن - وفيها تقرر جواز رمي الحصون بالمجانيق واستعمال الدبابات - أجهزة للحماية عند الهجوم - وأمان من نزل من الحصن مسلماً أو مستأثماً⁽⁵⁵⁾.

وفي الفكر الإسلامي يأخذ الأمان الممنوح من المسلمين لغيرهم إحدى صور ثلاث هي:

الأولى - أمان مؤقت خاص بمنحه الجندي المسلم أو قائد الجماعة المسلم للجندي المستسلم أو الجماعة المستسلمة من الأعداء، لمصلحة تتحقق للمسلمين على أثر منح المستأمن أو جماعة المستأمنين الأعداء هذا الأمان، ولهذا المستأمن أو هؤلاء المستأمنين حق الإقامة المؤقتة وحق الأمن حتى يصل إلى مأمنه، فإن تحولت هذه الإقامة إلى دائمة تحول المستأمن إلى نيمي.

ومن المشهور في الأثر الشريف أن أدنى المسلمين يمكن أن يسعى بذمتهم، وللمرأة هذا الحق كما وضع عند الحديث عن الأحكام التي تقررت بعد عام الفتح.

الثانية - الأمان المؤقت العام ولا يمنحه للمستأمنين إلا الإمام أو نائبه فقط ويكون لكل الجيش وهو المعروف بالهدنة وقد تكون هدنة مطلقة أو محددة الوقت، مثل هدنة الحديبية. (راجع تفاصيل ذلك في حديثنا عن المهادنة والمعاهدات ضمن الأدوات السلمية لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية).

الثالثة - الأمان الدائم ويكون مع أهل الذمة من أهل الكتاب ومع مشركي غير العرب، ويعقده الإمام أو نائبه، وبه يكون لأهل الذمة في المجتمع الإسلامي حقوق وعليهم نحو المجتمع والنظام العام فيه واجبات فصلتها كتب الفقه. وفي هذا الأمان يدفع أهل الذمة الجزية المشروعة. ورفضها من جانبهم يعد دليلاً على نية الاعتداء.

انظر في ملاحق الكتاب صيغة الأمان الذي منحه الرسول ﷺ لأهل نجران.

3 - وكذلك استخلص الفقهاء طائفة أخرى من الأحكام والمبادئ الدولية الإسلامية في هذا الصدد، نعرض موجزها في السطور التالية :

أ - اتفق الفقهاء على أن عامة ممتلكات الحربيين تُعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة ولهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدت إليه أيديهم منها، وما وقع تحت أيديهم من ذلك اعتبر ملكاً لهم . وقد استقر هذا المبدأ الحربي في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية منذ أول مواجهة عسكرية بين الدولة الإسلامية وأعدائها في غزوة بدر الكبرى⁽⁵⁶⁾.

ب - كذلك يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبتهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خطط أعدائهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العدد والعدة، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط ألا تنطوي على الإضرار بمصلحة أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم فالحرب خدعة في أساسها كما ورد في الحديث الشريف.

وقد جاء في كتب السيرة أن النبي ﷺ لما نزل قريباً من بدر ركب هو ورجل من أصحابه، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله النبي ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما، فقال ﷺ : (إذا أخبرتنا أخبرناك)، فقال : أذاك بذاك؟ قال : (نعم). فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين وبما سمعه من أمر النبي ﷺ وأصحابه، حتى إذا فرغ من كلامه قال : فَمَنْ أنتما؟ فقال النبي ﷺ : (نحن من ماء). ثم انصرف عنه. فأخذ الرجل يقول : ما من ماء؟ أم من ماء العراق؟⁽⁵⁷⁾، وهكذا كان ﷺ يضطلع أحياناً بمهمة كهذه. ثم إن الرسول ﷺ بثّ العيون بين الأعداء ليعرف شأنهم وأخبارهم في غزوة حنين حيث بعث عبد الله الأسلمي ليتحسس أخبار العدو ويأتى بأخبارهم - عن العدة والعدد - إلى المسلمين. أما من حيث معاملة المسلمين لجواسيس العدو، فقد ورد ما يفيد أنه يجب محاولة استمالتهم أولاً وتجنيدهم في صف المسلمين فإن لم يتحقق ذلك فَيُسْتَحْلُ دَمُهُمْ، كما فعل الرسول ﷺ بهم أكثر من مرة⁽⁵⁸⁾.

ج - كذلك من الأحكام الحربية الإسلامية أن إتلاف أشجار العدو، أو قطعها أو تركها، منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة ومن جدوى النكاية بالعدو. والمسألة من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية. قال العلماء: إنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه في نخيل بنى النضير - قطعاً أو كفاً - هو تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها، إرشاداً وتعليماً للأئمة من بعده.

وقد ثبت بالاتفاق قطع وإحراق نخيل بنى النضير. والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي. وقد نزل القرآن تصويباً لما أقدم عليه النبي ﷺ من ذلك - قطعاً وإبقاءً - وذلك في قوله: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾⁽⁵⁹⁾.

وبهذا علل أيضاً الشافعي - رحمه الله - أمر أبي بكر - رضي الله عنه - بالإحراق والقطع حينما أرسل خالداً إلى طليحة وبنى تميم مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام.

ويقول - رحمه الله - في ذلك : (ولعل أمر أبي بكر بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجراً مثمراً إنما هو لأنه سمع رسول الله يخبر أن بلاد الشام تفتح على المسلمين، فلما كان مباحاً أن يقطع ويترك، اختار الترك نظراً للمسلمين). كذلك ورد أن الرسول ﷺ في حصاره للطائف أذن بتحريق الكروم، وكانت أغلى ما يعتز به أهلها، فأرسلوا إلى

الرسول ﷺ يرجونه ألا يحرقها، ويخيرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله وللرحم، وقد أحس ﷺ من ذلك أن عريكتهم بدأت تلين فاستجاب لتوسلهم وأوقف تحريق الكروم. ولو أجرينا مقارنة بين تحريق نخل بنى النضير وبين الكف عن تحريق كروم الطائف لاتضح لنا الفرق، فاليهود لا أمل في أن يهتدوا، ويتقرب المسلمون إلى الله بكل إيذاء وغيظ ينزلونه بهم، وبكل ما ينالون منهم كما تبين الآية: 5 من سورة الحشر: ﴿ مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِبُخْلِي الْفَاسِقِينَ ﴾، والآية: 120 من سورة التوبة: ﴿ ... وَلَا يَطَّوَّنْ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، ... ﴾. وعلى العكس من ذلك، كان أهل الطائف، فقد لانت عريكتهم وسرعان ما أصبحوا من خيرة المسلمين. وهذا يعنى أن القائد المسلم يتدبر الأمر في حدود الصالح العام⁽⁶⁰⁾.

د - كذلك تجوز الإغارة على مَنْ بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها بدون إنذار سابق أو دعوة جديدة. وهذا رأى جمهور الفقهاء لما فعله النبي ﷺ في إغارته على خيبر⁽⁶¹⁾.

كذلك يجوز لإمام المسلمين أو رئيسهم أن يفاجئ العدو بالإغارة والحرب عند خيانتهم العهد، ولا يجب عليه أن يُعلمهم بذلك، فعندما أجمع النبي ﷺ للخروج إلى مكة لفتحها دعا قائلاً: (اللهم خُذْ أَبْصَارَ قُرَيْشٍ فَلَا يَرَوْنِي إِلَّا بَغْتَةً). وهذا ما اتفق عليه العلماء⁽⁶²⁾.

أما إذا لم تقع الخيانة وإنما خيفَ منهم ذلك بسبب دلائل وعلائم قوية فلا يجوز للإمام أن يتنبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب، بل لابد من إعلامهم جميعاً بذلك أولاً، بدليل قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾⁽⁶³⁾، أى أعلمهم كلهم عند نبذك لعهدهم.

هـ - أحكام الاستعانة بغير المسلمين في القتال واستعارة أسلحتهم⁽⁶⁴⁾.

لم يشأ النبي ﷺ أن يستعين بغير المسلمين في غزوة أحد برغم قلة عدد المسلمين. وقال فيما روى ابن سعد في طبقاته: (لا نستنصر بأهل الشرك علي أهل الشرك). وكان الذين عرضوا المشاركة على رسول الله ﷺ في قتاله المشركين، جماعة من اليهود.

وقد روي مسلم أن النبي ﷺ قال لرجل تبعه يوم بدر ليقاتل معه: أتؤمن بالله؟ قال لا. قال: فارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمَشْرِكٍ.

وقد ذهب جمهور كبير من العلماء - بناء على هذا - إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار فى القتال. وفصل الإمام الشافعى فى ذلك فقال : **إن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأى والأمانة فى المسلمين، وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به، والأ، فلا.**

ولعل هذا هو المتفق مع القواعد ومجموع الأدلة، إذ رُوِيَ أن النبى ﷺ قبل معونة صفوان بن أمية يوم حنين. والمسألة فى ذلك داخلة فى إطار السياسة الشرعية.

أما أسلحة المشركين وما يحتاجه الجيش من عدة الحرب والقتال من جانب المشركين، سواء باستعارتها أم بتملكها مجاناً أو بثمن، فللإمام أن يستعين بها. وهذا ما فعله النبى ﷺ فى غزوة حنين حينما استعار أسلحة من صفوان بن أمية، وكان لا يزال مشركاً إذ ذاك. وجواز هذا الأمر مشروط بأن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين، وأن لا يتسبب عن هذا دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم، أو تركهم لبعض واجباتهم وفروضهم الدينية. وقد كان صفوان بن أمية حينما أعار المسلمين الأسلحة فى وضع ضعيف بالنسبة للرسول ﷺ .

وفيما دون القتال فيجوز الاستعانة أيضاً بغير المسلمين، فقد أرسل النبى ﷺ بشر بن سفيان عينا إلى قريش ليأتيه بأخبارهم، وكان بشر مشركاً من قبيلة خزاعة، اطمأن إليه النبى ﷺ وأمن الغدر والخيانة من جانبه، كما كان دليله ﷺ فى الهجرة غير مسلم.

و- كذلك من أهم المبادئ العامة فى السياسة الخارجية للدولة الإسلامية⁽⁶⁵⁾، خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه البعض بـ (حكم الإمامة). وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل حكم تبليغى لا يخضع لأى نسخ أو تبديل. وأصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية. غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم. والميزان المحكم فى ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحاكم المتبحر فى أحكام الدين مع إخلاص وتجرد فى القصد إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة.

فإذا رأى الحاكم أن من الخير للمسلمين ألا يجابهوا أعداءهم بالحرب والقوة، وتثبت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة في ذلك، فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصاً من النصوص الشرعية الثابتة، حتى يأتى الظرف المناسب والملائم للقتال والجهاد، وله أن يَحْمِلَ رعيته على القتال والدفاع إذا ما رأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة في ذلك الجانب.

وهذا ما اتفق عليه الفقهاء ودلت عليه شواهد كثيرة من سيرة الرسول ﷺ اللهم إلا إذا دهم العدو المسلمين في عقر دارهم، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الوسيلة والظروف، ويعم الواجب في ذلك المسلمين والمسلمات كافة بشرط توفر مقومات التكليف.

ثم إن ما اتفق عليه الفقهاء أيضاً أن هذه الشورى مشروعة، ولكنها ليست بملزمة، أى إن على الحاكم أن يستنير بها في بحثه ورأيه، ولكن ليس عليه أن يأخذ بآراء الأكثرية لو خالفوه في الرأي. يقول القرطبي في هذا: ⁽⁶⁶⁾ «المستشير ينظر في اختلاف الآراء وينظر إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله - تعالى - إلى ما شاء منها عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله».

بقيت عدة أحكام نختم بها هذا المبحث بيانها كالتالى ⁽⁶⁷⁾:

موقف الإسلام من العدو إذا استسلم وألقى السلاح، وهو الموقف الذى يجسد سماحة الإسلام؛ لأنه يأمر أهله فى هذا الموقف أن يكفوا عن قتل المستسلمين وأن يتحفظوا عليهم حتى يرى الإمام فيهم رأيه، ورأيه دائماً يكون مطالبة هؤلاء بالإسلام أو دفع الجزية. ولا تمتد يد المسلمين بالقتل فى هؤلاء إلا إذا كان منهم من أسرف فى التنكيل بالمسلمين فيؤخذ هو بذنبه. كما فعل ﷺ باثنين فقط قتلهما من بين آلاف عديدة استسلموا يوم فتح مكة.

ونقول : إن هذا الموقف يجسد سماحة الإسلام لأنه لا يقارن من قريب أو بعيد بالبطش والفتك الذى مارسه غير المسلمين مع أعدائهم كما تحدثنا صفحات تاريخ المغول والرومان ثم الألمان واليهود والأمريكان وغيرهم.

- كذلك من الأحكام الناطقة بسماحة شريعة الإسلام أنه يجوز للإمام المسلم أن يكرم مجموع أعدائه من أجل بعض أفراد بين هؤلاء الأعداء، دخلوا الإسلام سراً ولم يتمكنوا من إعلان إسلامهم خشية بطش هؤلاء الأعداء بهم، ولو دارت رحى الحرب لمس هؤلاء البعض أذى، فلأجل هذه القلة يتوقف المسلمون عن الحرب، ويمكن أن تدور رحاها لو تميز هؤلاء الأفراد - القلة - عن المجموع.

وأخيراً :

إذا كان من الأحكام الداخلية الموجهة إلى أفراد الجيش المسلم ضرورة الثبات في المعركة، باعتبار أن الفرار من مواجهة العدو واحد من أعظم الكبائر في حق المسلم، كما أشار الحق تبارك - وتعالى - في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾⁽⁶⁸⁾، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دَبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ، وَشَسِ الْمَصِيرَ ﴾⁽⁶⁹⁾. وقوله ﷺ: (ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف) ، وبيانه ﷺ أن الفرار يوم الزحف من الموبقات أو المهلكات التي ينهى عنها الإسلام. أقول: إذا كان الأمر هكذا بالنسبة لأفراد الجيش المسلم فإن بعض المفكرين وفقهاء الإسلام يرونه كذلك بالنسبة لأهل البلد المسلم إن هم تركوا بلدهم أو أرضهم أو بيوتهم ومكوا العدو منها، فيجب أن يبقى أهل البلد المسلم يدافعون عن بيوتهم وأرضهم حتى آخر رمق ويكونوا شوكة في حلقوم العدو⁽⁷⁰⁾.

* * *

* *

*

مراجع الفصل الثالث

- 1 - البقرة : 216.
- 2 - رياض الصالحين، مرجع سابق، مجموعة كتب السلام، ص ص 235 - 244.
- 3 - الحشر : 23.
- 4 - الأنعام : 127.
- 5 - الأعراف : 46.
- 6 - الزمر : 73.
- 7 - الأحزاب : 44.
- 8 - يس : 58.
- 9 - د. البوطي، مرجع سابق، ص 134.
- 10 - د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 107 - 108 .
- 11 - د. البوطي، مرجع سابق، ص 134.
- 12 - التوبة : 123.
- 13 - التوبة : 29.
- 14 - العلماء فريقان في شأن ما ورد من آيات وأحاديث تطلق قتال الكفار والمشركين وهي:
- أ (قوله - تعالى - في الآية : 5 من سورة التوبة: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... ﴾ .
- ب (قوله - تعالى - في الآية : 123 من سورة التوبة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، ... ﴾ .
- ج (الحديث الشريف: (أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله .. الخ) متفق عليه.

فقد قرر الجمهور أن المراد بهؤلاء مشركو العرب، فلهؤلاء حكم خاص لخطورتهم على المجتمع الجديد. ويدل على ذلك كلمة (يَلُونَكُمْ) فى الآية : 123 من سورة التوبة، والمراد بها (يجاورونكم).

ويرى بعض العلماء أن المراد بالمشركين والكفار هنا هم المحاربون والمعتدون.

ولمزيد من التفصيل فى هذه النقطة، راجع:

- الشيخ محمود شلتوت، الإسلام والعلاقات الدولية، ص ص 37 - 38.

- د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص 136.

15- د. البوطى، مرجع سابق، ص ص 323 - 324.

16- الحج : 39.

17- راجع ماكتب فى سيرة ابن هشام عن غزوة تبوك، ودور الصحابة - خاصة عثمان

- فى تجهيز جيش العسرة، وكيف كان أبوبكر وعمر يتسابقان - فى مواقف

أخرى - فى الإنفاق فى سبيل الله.

18- د. البوطى، مرجع سابق، ص 135 وما بعدها.

19- محمد : 20.

20- د. عبد الودود شلبى، مرجع سابق، ص ص 64 - 65.

21- المرجع السابق، ص 67.

22- المرجع السابق، ص ص 71 - 77.

23- بيان للناس من الأزهري الشريف، ج 1، القاهرة، الأزهري، 1984، ص ص 273 - 283.

24- التوبة : 41.

25- رواه أبو داود وأحمد والنسائي، عن : «بيان للناس»، مرجع سابق، ص 275.

26- متفق عليه.

27- التوبة : 29.

- 28- النحل : 125.
- 29- د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 111-112.
- 30- الأنفال : 60.
- 31- الحشر : 13.
- 32- البقرة : 192.
- 33- الأنفال : 61.
- 34- التوبة : 6.
- 35- الأنفال : 72.
- 36- عبد الحليم الجندى، مرجع سابق، ص ص 107 - 109.
- 37- المائدة : 8.
- 38- عبد الحليم الجندى، مرجع سابق، ص 105.
- 39- د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 135.
- 40- الحج : 78.
- 41- د. عبد الودود شلبي، مرجع سابق، ص ص 119 - 131.
- 42- المرجع السابق، الصفحات ذاتها.
- 43- الحج : 39 - 40.
- 44- د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 104.
- 45- ابن خلف المصري، إرشاد المريدين لسيرة سيد المرسلين، هدية مجلة الأزهر، د. ت. ص ص 30 - 65.
- 46- د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص 15.
- و: أحمد حسن الباقورى، مرجع سابق، ص ص 130 - 302.

- و: سيرة ابن هشام، مرجع سابق، مواضع عديدة.
- و: د. أحمد شلبي، الإسلام، ط 8، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1985، ص 245 _ 252.
- 47- الجَشْر : 5.
- 48- د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص ص 19 _ 23.
- 49- المرجع السابق، ص 24.
- و: أحمد حسن الباقورى، مرجع سابق، ص ص 330 _ 356.
- 50- أحمد حسن الباقورى، مرجع سابق، ص ص 405 _ 429.
- و: د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص ص 27 _ 32.
- و: د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ص 195 _ 198.
- 51- د. البوطى، مرجع سابق، ص 305.
- 52- راجع وصايا أبي بكر - رضى الله عنه - الموجهة إلى قائد جيشه، السابق ذكرها فى أخلاقيات الحرب والسلام فى المبحث الثانى من هذا الفصل.
- 53- د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص 31.
- 54- النساء : 24.
- 55- د. مصطفى كمال وصفى، مرجع سابق، ص ص 31 _ 32.
- 56- د. البوطى، مرجع سابق، ص 171.
- 57- المرجع السابق، ص 173.
- 58- المرجع السابق، ص 303.
- و: د. أحمد شلبي، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ص 188 _ 190.

- 59- الحَشْرُ : 5.
- 60- د. البوطى، مرجع سابق، ص 204.
- و: د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص 171.
- 61- المرجع السابق، ص 259.
- 62- المرجع السابق، ص 283.
- 63- الأنفال : 58.
- 64- د. البوطى، مرجع سابق، صفحات : 190 , 303 , 252.
- 65- المرجع السابق، ص 171.
- 66- الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 252، عن : المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
- 67 - د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، صفحات: 198 , 114 , 182.
- 68- الأنفال : 45.
- 69- الأنفال : 15 _ 16.
- 70 - لمزيد من التفصيل، راجع: د. أحمد شلبى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ص 173 _ 187.

خاتمة الكتاب

حمل هذا الكتاب في طياته دعوة ضمنية إلى مزيد من الالتزام بمنهج الإسلام - روحه وشريعته - في المجال الذي كان موضع البحث والدراسة - العلاقات الدولية والسياسة الخارجية - موجهة إلى صناع القرار السياسي الخارجي في الدول الإسلامية المعاصرة؛ حتي تكون مسيرة هذه الدول علي الساحة الدولية أقوم، وتكون قراراتها أكثر رشداً، وتنطلق نحو الغاية التي من أجلها كانت دولة الإسلام، ويكون البناء السليم للعلاقات بين سائر المسلمين قائماً علي الموالاة والتناصر والتماسك، ونبتذ الخلافات وقتل الفتن في مهدها، وتجاهل الغايات والمنافع الشخصية المتعلقة بصناعة الزعامة الزائفة والخلود الوهمي.

دعوة إلى إدراك معني الهوية الإسلامية، وإعمالها كمركز أساسي تُبنى عليه قرارات السياسة الخارجية للدول الإسلامية المعاصرة، لما يتحقق علي أثر ذلك من وضوح في توجهات سياسات هذه الدول، وثقل في وزنها علي الساحة الدولية.

وهذا أول ما ينبغي الإشارة إليه بصدد صناعة السياسة الخارجية لدول العالم الإسلامي؛ لأن المسلمين لن ينالوا احترام العالم وتقديره إلا إذا كانت لهم شخصيتهم المستقلة ومواقفهم الواضحة وسياساتهم المحددة المعالم التي لا تُغفل - يوماً - مبدء الموالاة والتناصر بين المسلم وأخيه.

دعوة إلى التوقف عن التماذي في الاعتماد علي الركائز الحيادية المجردة، في صنع سياستنا الخارجية؛ فهذه الركائز يشاركنا فيها القاصي والداني، وتجعلنا في ظروف كثيرة غير قادرين علي اتخاذ موقف إسلامي واضح، بشأن قضية ما تخص إخوة لنا مسلمين في دولة أو مكان ما في العالم بحجة الحياد الواهية، ذلك الحياد الذي أسئ فهمه حتي أصاب العالم الإسلامي بالوهن والترهل والتراخي، وبات يشل يد المسلم عن نصرته أخيه.

وكذلك التوقف عما درج علي استعماله السياسيون في الدول الإسلامية من عبارات : (التعاطف)، و(التساند المعنوي)، و(الرابطة الروحية)؛ فمثل هذه العبارات - ركيكة البنية والمعني - قد أضعفت، بل كادت تقتل مفهوم الموالاة والتناصر بمعناها السياسي بين شعوب العالم الإسلامي ودوله .

فما نشهده اليوم من موقف دول العالم الإسلامي وقادته من قضايا المسلمين في البوسنة والهرسك وكشمير والفلبين والصومال وغيرها، يبعث علي مزيد من الحزن والحسرة والحزني؛ لأن ما تنقله شبكات الأخبار ووكالات الأنباء من صور السحق والمذابح والتدمير والانتهاك والتعذيب والطرده والإبادة، التي تطحن هؤلاء المسلمين في البقاع المشار إليها، كفيل بأن يحرك الجماد لنصرة هؤلاء وانتشالهم من هواتهم السحيقة التي دُفِنوا بها أحياء، حتي تحركت - تحركاً تمثيلاً - لنجدة بعضهم منظمات دولية تنصر بيد هزيلة، وتحركها مصالح كبار العائلة في عالمنا المعاصر، أو إن شئت قل : قريتنا أو إقطاعيتنا العالمية المعاصرة.

دعوة إلي ألا تنحصر سياسة هذه أو تلك من الدول الإسلامية في حدود معايير المصالح الوطنية أو القطرية الضيقة؛ لأن هذا يُعدُّ أولَ خطوة علي طريق الفناء في عالم اليوم : عالم التكتلات والأقرباء .

دعوة إلي عدم الانسلاخ عن انتمائنا الإسلامي وما يمليه علينا هذا الانتماء، فليس ثمة ما يضير إذا اتسمت الممارسات السياسية والاقتصادية والثقافية لبلد إسلامي ما - علي الساحة الدولية - بالصبغة الإسلامية؛ لأن مثل هذه الصبغة أو هذا التوجه لا يتعارض - في شيء - مع اهتمام هذا البلد بسياسته واقتصاده وتراثه الثقافي وأمنه الاجتماعي، بل مع الحب والانتماء لتراب الوطن؛ فهذا الحب والانتماء ركن من الايمان .

دعوة إلي تأكيد الثقة في أن العزة لن تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين .

تأكيد الثقة في أن الله ناصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

وإدراك أن الله ناصر دينه ومنهجه بنا أو بغيرنا، وإن أخفقنا نحن وتخلينا عن نصرته هذا الدين ودولته، فسوف يأتي الله بآخرين، يحبهم - بعد أن يزدرينا - ويحبونه - بعد أن تخلينا نحن عن حبه وعن دينه - ويجعل من هؤلاء الآخرين أعزَّةً ومنتصرين باسم الإسلام، ونكون نحن قد خسرنا - لا قدر الله - الدنيا والآخرة، فأولي بنا ألا نرتكب مثل هذا الخطأ الجسيم، وألا نهمل واجب - أو نضيع فرصة - الانتصار لدين الله في كل مواجهة نمر بها .

وبين أيدي صانعي القرار السياسي الخارجي - من المسلمين -، أضع بعض المؤشرات الدالة على إدراك قادة الغرب وصناع القرار السياسي الخارجي هناك، هُويَّة حضارتهم أو عالمهم، وخطورة ما يُكِنُّهُ هؤلاء لعالمنا وهوية حضارتنا : (*)

- 1 - صرح رئيس الوزراء البريطاني (جلادستون) فى إحدى خطبه قائلاً : (إننا لن نستطيع أن نقهر المسلمين ما بقى فيهم ثلاثة : المصحف، الكعبة، والأزهر).
- 2 - فى عام 1956 أثناء العدوان الثلاثى كتب (إيدن) إلى (ايزنهاور) : (نستنجد بكم لإنقاذ الحضارة المسيحية).
- 3 - الملكة اليزابيث (ملكة بريطانيا وأستراليا وسائر أقطار الكومنولث) تستدعى مواطنها الملاكم الانجليزى منافس محمد على كلاى، وتقيم له مأدبة غداء تعرب له فيها عن رغبتها فى هزيمة كلاى المسلم، ولم يسبق من قبل لملكة بريطانيا العظمى أن احتفت هكذا برياضى مهما كان شأنه، ولكنها فى موقف كهذا تصرفت بصفتها - بحكم الدستور - رئيسة الكنيسة وحامية حمى المسيحية.
- 4 - عند افتتاح قناة السويس أرسل المهندس ديليسبس إلى البابا قائلاً : (الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامى مفتوحاً).
- 5 - كان أول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر هو تحويل مسجد كيشاور التاريخى إلى كاتدرائية، وأصدرت هيئة البريد الفرنسية طابعاً تذكاريّاً يحمل الهلال منحدرّاً إلى قاع البحر والصليب مرتفعاً إلى الأفق :
- 6 - عندما سقطت دمشق فى يد القوات الفرنسية، ذهب القائد (غورو) إلى قبر صلاح الدين قائلاً : (لقد عدنا مرة ثانية يا صلاح الدين).
- 7 - عندما دخلت القوات الإسرائيلية القدس عام 1967 تجمهر الجنود الإسرائيليون حول حائط المبكى يهتفون : (هذا يوم بيوم خيبر، لقد ولّى محمد وراح).
- 8 - خطب أحد القادة البرتغاليين (البوكرك) فى إحدى مستعمراتهم الأفريقية (ملقا) قائلاً : (إذا سقطت ملقا فسوف تسقط القاهرة، ومن بعدها تنهار مكة).
- وكتب أحد المفكرين البرتغاليين (تومى بيرس) إلى الملك (إيمانويل) قائلاً : (إن البوكرك يقاتل ضد محمد، وإن محمداً محاصر، ولن تقوم له قائمة بعد اليوم).

(*) لمزيد من التفصيل راجع :

- د. عبد الودود شلبى، الإسلام وخرافة السيف، مرجع سابق.
- أحمد ديدات، شيطانية الآيات الشيطانية وكيف خدع سلمان رشدى الغرب، ترجمة على الجوهري، القاهرة، دار الفضيلة، 1990.

9 - خطب ملك إسبانيا أمام البابا : (إن إسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين في أفريقيا، حرباً لا تنفك عنها حتى تغرس الصليب في ديار المسلمين، وتجعل أتباع محمد يخضعون له قهراً).

وأخيراً .. الغرب كله ينحني ليمتطي ظهره المرتد سلمان رشدي، ويوجه من فوقه سبابه وبذائاته صوب الشرق الإسلامي - محمد وأتباعه - .

ولم يكن ما وجهه سلمان - سفيه العصر هذا - إلى الشرق الإسلامي، وكان سبباً في قلب العالم الإسلامي عليه وإفتاء البعض بإهدار دمه، إلا جزءاً يسيراً إذا قورن بما قذف به الغرب نفسه وقياداته، ولكنهم - كما ذكرت - أحنوا ظهورهم وغضوا أبصارهم، وتغاضوا عن حقهم، بل وحموا سلمان رشدي؛ في سبيل أن يصل بعض سبابه إلى محمد وأتباعه في الشرق .

وأقول : - سفيه العصر -؛ لأنه لم يسلم أحد من لسانه ، وليس ثمة من يدانيه في القدرة على الهجاء المقذع للهندوس والمسلمين والمسيحيين واليهود، ثم السود والبيض في عمق المجتمع الغربي وأطرافه.

لقد دفع له أصحاب دار (فايكنج) للنشر ودار (بنجوين) للنشر ثمانمائة ألف دولار نقداً ومقدماً ليسب محمداً، فكان سبه وقذفه الموجه إليهم - الغرب - أشد وأقسى !

- فهو ينعت آباء البريطانيين بقوله : (مزدهرة لندن، باهى ! هانحن أولاء نحضر إليها، وأبنائه الزنى أولئك الذين يعيشون تحت طائرتنا لا يعرفون ماذا سيصدمهم). ثم يكرر قذفهم بالزنى في كتابه - سلة قاذوراته - (الآيات الشيطانية) تسعاً وعشرين مرة.

ثم يصم الأمة البريطانية كلها بالكلمة الانجليزية القبيحة - المعروفة بالكلمة ذات الحروف الأربعة -، ويكرر قذفه إياهم بهذه الكلمة في كتابه اثنتين وخمسين مرة .

ثم إنه لم يعف من هجائه المقنع المرأة الحديدية - رئيسة الوزراء البريطانية - ولا ملكة بريطانيا العظمى نفسها، فقد طعن في شرفهما .

وقبل الغرب وقياداته كل هذا من سلمان رشدي في مقابل قليل من التناول - بالمقارنة - يرمي به - في الوقت نفسه - محمداً ودينه وأتباعه.

...

وأخر قولي : ﴿... إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله ،...﴾

الملاحق

- 1 - منهج الكتاب فى الاقتباسات القرآنية .
 - 2 - دستور المدينة:

هو العهد الذى كتبه الرسول ﷺ بينه وبين أهل المدينة بعد هجرته إليها، وهو الوثيقة التى جرى أغلب الباحثين على تسميتها « دستور المدينة »، ويتبعه بيان لغريب ألفاظه.

 - 3 - كتاب رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران وأهلها، ثم صيغة الأمان الممنوح منه ﷺ لهم.
 - 4 - نماذج من رسائله ﷺ إلى الملوك:
 - أ - رسالته ﷺ إلى المقوقس .. عظيم القبط فى مصر .
 - ب - رسالته ﷺ إلى كسرى .. ملك فارس .
 - ج - رسالته ﷺ إلى قيصر .. ملك الروم .
 - د - رسالته ﷺ إلى النجاشى .. ملك الحبشة . - 5 - أهم نصوص العهدة العمرية:

وهى المعاهدة المعروفة بـ «العُهْدَةُ العُمَوِيَّةُ» وقد كتبها عمر بن الخطاب لمسيحيي بيت المقدس الذين طلبوا الصلح عندما ذهب إليها عمرو بن العاص فاتحا ، على أن يحضر الخليفة بنفسه ليتسلم المدينة ويتعهد لأهلها بالحرية الدينية ورعاية أهلها.

 - 6 - نص اتفاقية المصالحة والمهادنة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان.
 - 7 - خطاب ملك إنجلترا جورج الثانى إلى هشام الثالث ملك المسلمين فى الأندلس .
- وإجابة هشام:
- وقد بعث جورج هذا الخطاب إلى ملك المسلمين يستأذنه فى قبول مجموعة مختارة من الطلاب الانجليز ليلتحقوا بالمعاهد الإسلامية بقرطبة. وأجابه ملك المسلمين بالموافقة.

ملحق (أ)

منهج الكتاب في الاقتباسات القرآنية :

أولاً - يكون الاقتباس دائماً بين قوسين، وحين يحيط به القوسان فقط فهو آية كاملة، في مثل قوله - تعالى - :

- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعْتَابَ وَإِنْ أُوْهِنَ الْبُيُوتُ لَيَبُتَّ الْعَنْكَبُوتُ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .
العنكبوت : 41

ثانياً - حين تسبق الاقتباس نقط أفقية ﴿...﴾ أو تلحق به، فهو جزء من آية، وتشير النقط - حسب قواعد الترقيم العادية - إلي ما لم يُذكر من النص، ويكتفي بالمذكور فقط - أي الجزء من الآية -؛ لارتباطه وحده بموضوع حديثنا، مؤخذاً في الاعتبار أن هذا الاقتباس يحمل معني مكتملاً، ليس معلقاً علي غير المذكور، قبله أو بعده؛ لتجنب اللبس أو الغموض أو الخلل، وصيانة للنص القرآني، ودلالاته، في مثل قوله - تعالى - :

- ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ البقرة : 257

- ﴿... إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف : 27

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ...﴾ الأنفال : 73

ثالثاً - إذا كان الجزء غير المذكور من الآية له دور في تأكيد الاقتباس أو تفسيره، فهذا أمر آخر، يُنَوّه به عند الحاجة.

رابعاً - سَنُتَّبِعُ النقط الأفقية التي تسبق الاقتباس فاصلة لتأكيد استقلالية الاقتباس بمعناه، إذا كانت تسبقه في المصحف إحدي علامات الوقف الجائز . وكذلك سنلحق بالاقتباس فاصلة أخرى إذا كانت بعده بالمصحف إحدي علامات الوقف الجائز، ثم تأتي النقط الأفقية اللاحقة، لبيان أن للآية بقية. راجع النماذج في (ثانياً).

خامساً - إذا كان الاقتباس بعد القوس الأول مباشرة فمعني هذا أنه بداية آية، وإذا كان متبوعاً بالقوس الثاني مباشرة فمعني هذا أنه ختام آية. راجع النماذج في (ثانياً).

سادساً - عند وضع فاصلة أو أكثر داخل الآية الكاملة، فهذه الفواصل تشير إلي مواضع الوقف الجائز الموضحة في المصحف، وذلك لتيسير الأمر علي القارئ، إذا أراد الإحاطة بمعني ما بين الفاصلتين مستقلاً. راجع النموذج في (أولاً).

سابعاً - وجود نقطة على السطر داخل الاقتباس نعنى به الإشارة إلى موضع وقف لازم - مشار إليه فى المصحف - يجب عنده التوقف عن القراءة لدرء التوهم، والتداخل بين معنى ما قبله ومعنى ما بعده إن تواصلت القراءة، فى مثل قوله - تعالى - :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ.

بعضهم أولياء بعض، ... ﴾ . المائدة : 51

ثامناً - وجود سهم تحتى بين كلمتين داخل الاقتباس نعنى به الإشارة إلى موضع وقف ممنوع - مشار إليه فى المصحف - يجب عنده مواصلة القراءة؛ لشدة ارتباط ما قبله بما بعده، فى مثل قوله - تعالى - :

- ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا

الجنة بما كنتم تعملون ﴾ . النحل : 32

تاسعاً - حين توضع داخل الاقتباس علامة (*) فهى تفصل بين آية وأخرى أو أخريات داخل القوسين، فى مثل قوله - تعالى - :

- ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ الغاشية : 21 : 22

* * *

* *

*

ملحق (2)

دستور المدينة *

«بسم الله الرحمن الرحيم

- 1 - لهذا كتاب من محمد النبي - رسول الله - بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبخهم ولحق بهم، وجاءت معهم.
- 2 - أنهم أمة واحدة من دون الناس.
- 3 - المهاجرون من قريش علي ربهتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفتون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 4 - وبني عوف علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 5 - وبني الحارث بن الخزرج علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 6 - وبني ساعدة علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 7 - وبني جشم علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 8 - وبني النجار علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 9 - وبني عمرو بن عوف علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 10 - وبني النبيت علي ربهتهم، يتعاقلون معاقلمهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(* عن: سيرة ابن هشام، ج 2، ص 318 - 320.

و: نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص 18 - 21.
وسيتبع هذا النص بيان لشرح غريب ألفاظه.

- 11 - ونبو الأوس علي ربحتهم، يتحاقلون معاقلهم الأولي، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 12 - وأئ المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أئ يعطوه بالمعروف، فداء أو عقل.
- 12 - (با) وأئ لا يحالف مؤمن مولي مؤمن دونه.
- 13 - وأئ المؤمنين المتقين أيديهم علي كل من بخي منهم، أو ابتغي دسيحة ظلم، أو إثماً أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأئ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
- 14 - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً علي مؤمن.
- 15 - وأئ خدمة الله واجدة، يجير عليهم أذنهم، وأئ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.
- 16 - وأنه من تبخنا من يهود فأئ له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.
- 17 - وأئ سلم المؤمنين واحد، لا يسال مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا علي سواء وعدل بينهم.
- 18 - وأئ كل غزاة غزت معنا يعقب بعضها بعض.
- 19 - وأئ المؤمنين يبي بعضهم علي بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- 20 - وأئ المؤمنين المتقين علي أحسن هدي وأقومه.
- 21 - وأنه لا يجيز مشرك مالا لقريش، ولا نفسا، ولا يحول دونه علي مؤمن.
- 21 - (با) وأنه من اعتبط مؤمناً قتيلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أئ يرضي ولي المقتول بالعقل، وأئ المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
- 22 - وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أئ ينصر محدثاً أو يؤويه، وأئ من نصره عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف.
- 23 - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فأئ مرجع إلي الله وإلي محمد ﷺ.

- 24 - وألّ اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- 25 - وألّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم، والمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتخ إلا نفسه وأهل بيته.
- 26 - وألّ يهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
- 27 - وألّ يهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
- 28 - وألّ يهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
- 29 - وألّ يهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.
- 30 - وألّ يهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
- 31 - وألّ يهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتخ إلا نفسه وأهل بيته.
- 32 - وألّ جفنة بطن من ثعلبة كاتفسهم.
- 33 - وألّ لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وألّ البر دؤن الإثم.
- 34 - وألّ موالي ثعلبة كاتفسهم.
- 35 - وألّ بطانة يهود كاتفسهم.
- 36 - وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد ﷺ.
- 36 - أبا وأنه لا ينجز علي ثار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وألّ الله علي أبر هذا.
- 37 - وألّ علي اليهود نفقتهم، وعلي المسلمين نفقتهم، وألّ النصر علي من جارب أهل هذه الصحيفة، وألّ بينهم النصيحة والبر دؤن الإثم.
- 37 - أبا وأنه لا ياتر امرؤ بحليفه، وألّ النصر للمظلوم.
- 38 - وألّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- 39 - وألّ يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- 40 - وألّ الجار كالنفس غير مزار ولا آثر.

- 41 - وأنه لا تجار جرمة إلا يأخذ أهلها.
- 42 - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فأق مرتبه إلي الله وإلى محمد رسول الله، وأق الله علي أتقي ما في هذه الصحيفة وأبره.
- 43 - وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
- 44 - وأق بينهم النصر علي من دهم يثرب.
- 45 - وإذا دعوا إلي صلح يعالجونه ويلبسونه، فإنهم يعالجونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلي مثل ذلك فإنه لهم علي المؤمنين، إلا من جارب في الدين.
- 45 - (ب) علي كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- 46 - وأق يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، علي مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأق البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا علي نفسه، وأق الله علي أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- 47 - وأنه لا يحول لهذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم، وأق الله جار لمن بر واتقي، ومحمد رسول الله.

تابع ملحق (2)

شرح الغريب من الألفاظ الواردة في دستور المدينة

- علي ربتهم : أي علي الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.
- يتعاضلون : أي يعطون الديات ويأخذونها.
- العاني : أي الأسير.
- المفرح : أي المثل بالدين والكثير العيال.
- العقل : أي الدية، والمعاقل : أي الديات.
- الدسيعة : العطية.

- اعتَبَطَه : قتله بلا ذنب.
- يَوْتُغُ : يهلك.
- بطانة الرجل : أي خاصته وأهل بيته.
- علي أبرّ هذا : أي علي الرضا به.
- الغازية : الجماعة خرجت تغزو.
- يبي بعضهم علي بعض : أي يتعادلون.
- القسود : هو القصاص في القتل.
- العدل والصرف : أي الفداء والتوبة.
- ينحجز : يحال بينه وبين غرضه.

* *

*

ملحق (3)

كتاب رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران وأهلها وصيغة الأمان الممنوح منه ﷺ لهم.

أ - كتاب رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران وأهلها (*) .

«باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب :

«من محمد النبي رسول الله إلي أسقف نجران وأهل نجران ..

«سلم أنتم، فأني أحمده إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

أما بعد، فأني أَدْعُوكُمْ إلي عبادة الله من عبادة العباد، وأَدْعُوكُمْ إلي ولاية الله من ولاية العباد، فأني أبيتهم فالجزية، فأني أبيتهم فقد آذنتكم بحرب، والسلام».

ب - صيغة أمان الرسول ﷺ لأهل نجران (**).

«لنجران وحاشيتها جوار الله، وخيمة محمد علي ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يخسرون ولا يحسرون، ولا يظلمون ولا يظالمون، ومن سأل منهم جفا فلهم النصف، غير ظالمين ولا مظلومين».

(*) من رسائل النبي، مرجع سابق، ص 33.

(**) العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 198.

ملحق (4) نماذج من رسائله ﷺ إلى الملوك (*) :

أ - رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس .. عظيم القبط في مصر

«بسم الله الرحمن الرحيم

» من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس .. عظيم القبط.

«سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاء الإسلام .. أسلم
تسلم يؤتكَ الله أجره مرتين، فإن توليت فإني فاعليك إثم كل القبط.

» يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا
نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأننا مسلمون».

الله

رسول

محمد

ب - رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى .. ملك فارس

«بسم الله الرحمن الرحيم

» من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

«سلام علي من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإن محمدًا عبده ورسوله ..

» وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأتخذ من كل
حيا ويحق القول علي الكافرين .

« فإن تسلم تسلم، وإن أبيت فإني إثم المجوس عليك .»

(*) من رسائل النبي ﷺ، مرجع سابق، ص ص 23 - 31.

ج - رسالة الرسول ﷺ إلى قيصر .. ملك الروم

«بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد عبد الله ورسوله إلي هرقل صاحب الروم.

« سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد :

« فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.

« ويا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

د - رسالة الرسول ﷺ إلى النجاشي .. ملك الحبشة

«بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلي النجاشي الأصم ملك الحبشة.

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيم، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلي مريم البتول الطاهرة الطيبة الحسنة، فحملت به عيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلي الله وحده لا شريك له والمواثقة علي طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالحذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين ..

فإذا جاءوك فاقبلهم ودع التجار ، فإني أدعوك وجنودك إلي الله - عز وجل - . . . وبلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي ، والسلام علي من اتبع الهدى».

ملحق (5)

أهم نصوص العهدية العمرية * :

- هذا ما أعطي عبداً لله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من طليعهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون علي دينهم، ولا يُغَارَ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

- علي أهل إيلياء أن يخرجوا منها الروم واللصوص، ومن خرج منهم فإنه آمن علي نفسه وماله حتي يبلغوا مائتهم.

- ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير إلي الروم فله ذلك وهو آمن علي نفسه وماله حتي يبلغ مائته.

...إلخ

(*) عن : العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 53 - 54.

ملحق (6)

نص اتفاقية المصالحة والمهادنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان * .

بسم الله الرحمن الرحيم :

- 1 - هذا ما تفاضلي عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيختهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.
- 2 - قضية عليّ عليّ أهل العراق شاهدهم وغائبهم، وقضية معاوية عليّ أهل الشام شاهدهم وغائبهم.
- 3 - إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته؛ نحي ما أحيا، ونميت ما أمات. عليّ ذلك تفاضينا، وبه تراضينا.
- 4 - وأؤ عليا وشيخته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرا وحاكما^(١)، ورضي معاوية وشيخته بعمر بن العاص ناظرا وحاكما.
- 5 - عليّ أن عليا ومعاوية أخذوا عليّ عبد الله بن قيس وعمر بن العاص، عهدا الله وميثاقه وخدمته وخدمة رسوله، أن يتخذا القرآن إماما، ولا يحدوا به إلى غيره في الحكم بما وجده فيه مسطورا، وما لم يجد في الكتاب رجاؤه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمدا لها خلافا، ولا يبنيا فيها بشبهة.
- 6 - وأخذ عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عليّ ومعاوية، عهدا الله وميثاقه، بالرضا بما حكما به، مما في كتاب الله وسنة نبيه. وليس لهما أن يتقضا ذلك، ولا يخالفاه إلى غيره.
- 7 - وهما آمنان في حكومتهم عليّ دماءهم وأموالهم وأشعارهم وأبشارهم وأهاليهم وأولادهم لم يحدوا الحق، رضي به راض، أو سخط ساخط. وأؤ الأمة أنصارهم عليّ ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

(*) عن : المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص 87 - 90.

(١) عبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعري. وفي رواية أخرى وردت كلمة (حاكما) بدلاً من كلمة (حاكما).

8 . فَإِنْ ثَوَّقِي أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْحُكُومَةِ، فَلِشَيْعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ أَنْ يَخْتَارُوا مَكَانَهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَخْطَةِ وَالصَّلَاحِ، عَلَيَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ.

9 . وَإِنْ مَاتَ أَحَدُ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجْلِ الْمَحْدُودِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَلِشَيْعَتِهِ أَنْ يُوَكِّلُوا مَكَانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ.

10. وَقَدْ وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَالْمُفَاوَضَةِ وَرَفَعَ السِّلَاحَ.

11. وَقَدْ وَجِبَتْ الْقَضِيَّةُ عَلَيَّ مَاسْمِينَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْجِئِ الشَّرْطِ عَلَيَّ الْأَمِيرَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ. وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَكَفِي بِهِ شَهِيدًا ، فَإِنْ خَالَفَا وَتَعَدَّيَا فَالْأَمَّةُ بَرِيئَةٌ مِنْ حُكْمِهِمَا، وَلَا عَهْدَ لِهَمَا وَلَا ذِمَّةَ.

12. وَالنَّاسُ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَى انْقِضَاءِ الْأَجْلِ، وَالسِّلَاحَ مَوْضُوعَةً، وَالسَّبِيلَ آمِنَةً، وَالْخَائِبَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِثْلَ الشَّاهِدِ فِي الْأَمْرِ.

13. وَلِلْحَكَمَيْنِ أَنْ يَنْزِلَا مِنْزِلًا مَتَوَسِّطًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ.

14. وَلَا يَحْضُرُهُمَا فِيهِ إِلَّا مَنْ أَحْبَبَا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا.

15. وَالْأَجَلَ إِلَى انْقِضَاءِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِنْ رَأَى الْحَكَمَانِ تَعْجِيلَ الْحُكُومَةِ عَجَلًا لَهَا، وَإِنْ رَأَى تَأْخِيرَهَا إِلَى آخِرِ الْأَجْلِ أَجْرَاهَا.

16. فَإِنْ لَمْ يَحْكَمَا بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى انْقِضَاءِ الْأَجْلِ، فَالْفَرِيقَانِ عَلَيَّ أَمْرَهُمُ الْأَوَّلُ فِي الْحَرْبِ.

17. وَعَلَى الْأَمَّةِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. وَهُمْ جَمِيعًا يَدُ وَاحِدَةٍ عَلَيَّ مِنْ أَرَادَ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِجْرَاءً أَوْ ظُلْمًا، أَوْ خِلَافًا.

* *

*

ملحق (7)

خطاب ملك إنجلترا جورج الثاني إلى هشام الثالث ملك المسلمين بالأندلس.

واجابة هشام (*).

أ- خطاب الملك :

« من جورج الثاني ملك إنجلترا والسويد والنرويج إلي الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل الموقر .

بعد التحظير والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا.

وقد وضعنا ابنة شقيقتنا (دوبانتا) علي رأس بَهَّة من بنات أشراف الإنجليز لتتشرّف بِلَمّ أهّاب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتنا موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وَجَدَّاب من لَدُنْ معلماتهن، وقد بعثت مع الأميرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التحظير والحب الخالص.

امضاء

المطيع جورج،

(*) عن : العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 85 - 86.

تابع ملحق (7)

ب - إجابة الخليفة إلى الملك :

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين. وبعد ..

إلى ملك إنجلترا جورج الثالث، لقد أطلعتُ علي التماسكم فوافقت . بعد استشارة من يخنيهم الأمر . علي طلبكم، وعلي هذا فإننا نَظْمُكم بآته سَيَنْفَقُ علي هذه البعثة من مال المسلمين دِلالة علي مودتنا ورغبتنا في نشر العلم، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وأبحث إليكم ببعض الطنافس الأندلسية، وهي من صنع أبنائنا، أبحث بها هدية إليكم، وهي تحمل المغزي الواضح للتدليل علي محبتنا. والسلام.

خليفة رسول الله على ديار الأندلس

هشام

كتاب

2

الملتقى

إستراتيجية الثروة

دراسة في الثروات الطبيعية في الوطن العربي

مكتور : سمير محمود والي

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي
ش.م.م

ديوان

1

الملتقى

محمد عفيفي مطر

والنهر يلبس الأقنعة

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي

ش.م.م

ديوان

2

الملتقى

براهيز الأنثى

ماجد يوسف

أشعار مصرية

الملتقى للإنتاج الفنى والثقافى
ش.م.م

الملتقى

1

القمي

سعيد الكفراوي
بيت الحارين

قصة

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي
ش.م.م



الإصدارات القادمة

أولاً : كتاب الملتقى.

١ - موسوعة القرن الحادى والعشرين.

الدكتور / سمير والى .

٢ - رسائل النبى.

الأستاذ / مجدى الشهاوى.

ثانياً : الملتقى الأدبى .

١ - برديات.

الأستاذ / إسماعيل بهاء الدين.

٢ - المنيا - القاهرة .

الأستاذ / محمود سليمان.

ثالثاً : ديوان الملتقى .

١ - الأعمال الكاملة.

الأستاذ / محمد عفيفى مطر.

٢ - هذه السيدة.

الأستاذ / عزت الطيرى.

٣ - أمواج.

الأستاذ / أشرف العنانى.

٤ - الشروع فى البعث .

الأستاذ / عماد عبد المحسن.

الملتقى للإنتاج الفنى والثقافى

ش.م.م



تمت عمليات الجمع والإخراج والتجهيز الطباعي

بأجهزة الكمبيوتر بالقسم الفني

بشركة

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي

قسم الكمبيوتر.

1 - عائشة محمد عطية

2 - أشرف طاهر محمد

3 - إبراهيم فتحي عبد النبي

4 - مازن عبد المولى محمد.

الإشراف الفني :

منال جنا جنان الله

طبعت بمطابع المدني بالعباسية.

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي
ش.م.م

كتاب



الملتقى

صورة الغلاف

منمنمة من طراز عثماني (القرن الثاني عشر هجري/ الثامن
عشر الميلادي) تصور المدينة المنورة. عاصمة أول دولة إسلامية،
شيدها النبي ﷺ نفسه بعد هجرته من مكة في سبتمبر عام 622
(العام الأول من الهجرة).

الصورة : متحف الفن الإسلامي، ألمانيا الغربية.

نقلاً عن مجلة اليونيسكو

العدد 241 - 242

أغسطس - سبتمبر 1981



عبد التواب مصطفى ..

معد ومقدم البرامج الدينية بتليفزيون القاهرة.

من مواليد القليوبية في 24 / 9 / 1958.

تخرج في كلية الإعلام بجامعة القاهرة - عام 1980 (شعبة الفيديو بقسم الإذاعة).

أتم دراسات تخصصية عديدة في الإعلام التليفزيوني بمؤسسة فريدريك نومان الألمانية (غ) ومعهد الإذاعة والتليفزيون بمصر.

حصل علي دبلوم المعهد العالي للدراسات الإسلامية - عام 1985.

حصل علي دبلوم معهد البحوث والدراسات العربية - شعبة العلوم السياسية - عام 1986.

حصل علي درجة الماجستير في التاريخ والحضارة المصرية من معهد الدراسات القبطية - عام 1988.

حصل علي درجة الماجستير في البحوث والدراسات السياسية والقومية عام 1992، من معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

صدر له : ملحمة الجنوب .. قصة الديمقراطية في دولة سوار الذهب، عن دار أخبار اليوم - عام 1989.

له تحت الطبع :

- البعد الإسلامي في السياسة الخارجية المصرية (يوليو 1952 - يوليو 1969).

- العربية .. تَعَلَّمْهَا والتَّحَدَّثْ بِهَا، من شعائر الإسلام.

- منظمة المؤتمر الإسلامي .. بعد وأد الجامعة وإسقاط الخلافة.

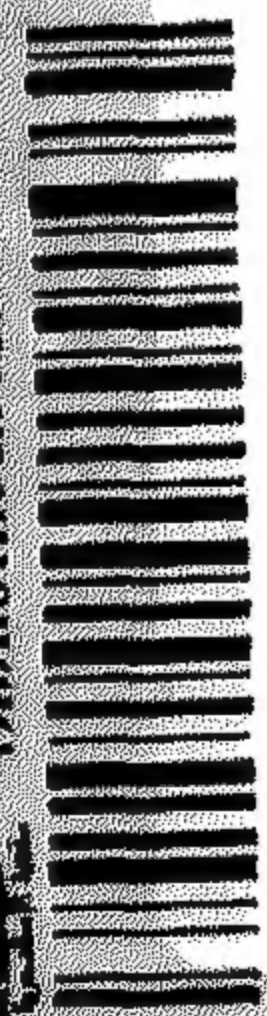
- الممارسة الديمقراطية ونظام الحكم (في دولة الصديق رض الله عنه).

- قليل من الرومانسية .. ديوان شعر.

الملتقى للإنتاج الفني والثقافي

ش.م.م

Bibliotheca Alexandrina



05333868